

الاستشراق الجديد

جولة مع المستشرقين الجدد

د. أمل خيري أمين

٢٠١٠



المحتويات

باتريشيا كرون.. نموذج لتعصب الاستشراق الجديد



باتريشيا كرون، الدانمركية المولد البريطانية النشأة، تمثل نموذجا متشددا ينتمي للمدرسة الاستشراقية المتعصبة في العصر الحديث، فهي تتسم بالتشدد والتعصب واغتصاب الحقيقة وتلك أكبر ممثل للأخطاء المنهجية، فتعمد إلى اجتزاء النصوص، واللعب بالألفاظ، بل تغيير الحروف، رغم معرفتها أو ادعائها المعرفة الكاملة للغة العربية.

هذه الشخصية كرست جهدها وبحثها للقدح في الإسلام والنيل من ثوابته والتشكيك في مصادره بأسلوب مغلف بقالب البحث العلمي المحايد، ولكنها فشلت في الحياد تماما ولم تستطع التخلي عن نبرات العداء والكراهية التي تقطر من كتاباتها.

ولدت باتريشيا كرون في الدانمارك، وفيها أنهت تعليمها الأساسي، ثم انتقلت إلى بريطانيا، وأكملت دراستها الجامعية والعليا في جامعة لندن، وحصلت منها على الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية عام ١٩٧٤.

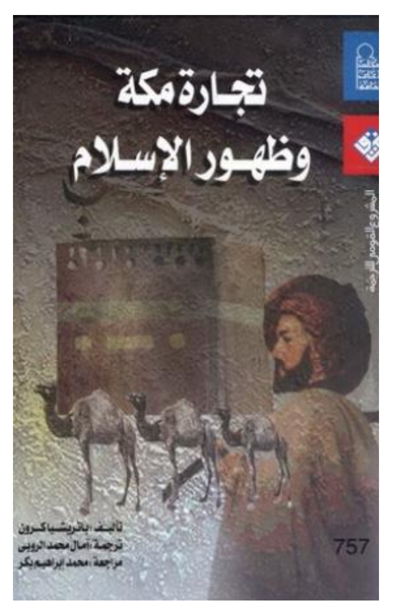
عملت في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧، وبعدها عملت على مدى عشرين عاما في جامعة كمبريدج البريطانية حتى ١٩٩٧ حيث انتقلت بعدها للعمل في معهد الدراسات العليا المتقدمة في جامعة برنستون الأمريكية.

لها أكثر من عشرة كتب منشورة في التاريخ والحضارة الإسلامية واشتركت في إصدار سلسلة دراسات عن: القانون الإسلامي والدراسات الاجتماعية وهي عضو في مجلس إدارة خمس دوريات تاريخية من بينها موسوعة الفكر السياسي، وهي عضو في الجمعية الفلسفية الأمريكية، وأستاذ فخري في كلية اللاهوت في جامعة آرهوس.

وهي تجيد اللغة العربية إجادة تامة إلى جانب العبرية واللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية، وقد منحت مؤخرا شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة كوبنهاجن، ولها العديد من المحاضرات والدورات التدريبية حول الإسلام وتاريخه.

مكة.. على البحر الميت!

يعد كتاب "تجارة مكة وظهور الإسلام" من أشهر مؤلفات كرون، صدر عن جامعة أكسفورد وانتشر بين جامعات بريطانيا ويكاد يكون كتابا رئيسيا في أيدي طلبة أقسام التاريخ في الغرب.



احتوى الكتاب على أفكار وآراء بدت بعيدة تماما عن الوقائع التاريخية والأثرية الموثقة والمستقرة إضافة لازدرائها لبعض مفاهيم الإسلام وتوصلت فيه باتريشيا لعدد من النتائج الخطيرة من أهمها:

أولا: رفض ما هو ثابت تاريخيا وجغرافيا حيث ادعت أن مكة لا تقع في مكانها المعروف والمستقر بل تحركها من مكانها على الخريطة؛ فمكة حسب باتريشيا تقع على البحر الميت.

ثانيا: التشكيك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حيث ادعت أن دعوته لم تظهر في مكة بل في شمال الحجاز، وأن قريشا ارتبطت بشمال الحجاز لا مكة كما هو معروف وثابت، وبذلك فهي لا تهدم تجارة مكة العالمية فقط بل تحاول هدم أساس من أسس الدعوة الإسلامية وهو انطلاقها من مكة.

ثالثا: التشكيك في المصادر الإسلامية حيث تعمدت إغفال المصادر الأساسية التي تناقض آراءها، وطرحت نتائج بلا ذكر لمصادرها، واتهمت المستشرقين الذين خالفوها الرأي بأخذهم من المصادر الإسلامية على علاتها.

رابعا: نفت اتجاه الحجيج قبل الإسلام إلى مكة والبيت الحرام وادعت أنهم كانوا يتجهون للأسواق القريبة منها وهي عكاظ وذو المجاز ومجنة، وقامت بشرح مناسك الحج الجاهلي والإسلامي متعمدة إهمال ذكر الطواف والتلبية.

خامسا: رفضت الاعتراف بدور قريش في تجارة الشرق العالمية وأصرت على تهميش دورها ووصفته بالدور المحلي، رافضة لتفسير المفسرين لسورة قريش التي تؤكد الاتجاه الدولي في تجارة قريش قبل الإسلام.

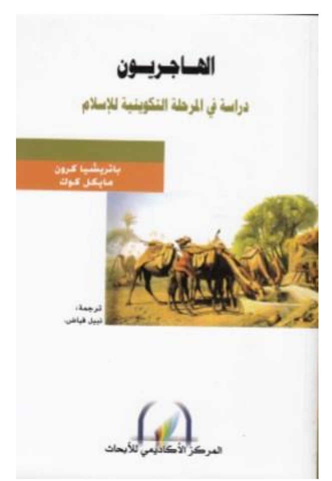
سادسا: استخدمت أسلوب السخرية والتهكم لإقناع القارئ بفكرتها عن العرب بوصفهم بالبرابرة، والمسلمين بأنهم وكر لصوص.

سابعا: حاولت التشكيك في تاريخ معركة بدر الكبرى الثابت وقوعها في السنة الثانية للهجرة بخلط الحقائق وتكذيب المصادر الإسلامية عن تاريخ هذه المعركة.

وخلال صفحات الكتاب استخدمت أساليب مراوغة وتحايل لتخلط على القارئ المعاني وتطمس الحقائق، وقامت بتغطية مغالطاتها بثوب من البحث العلمي التاريخي.

وقد أحسنت صنعا الدكتورة آمال الروبي بترجمة الكتاب للعربية وتفنيد مزاعم كرون والرد عليها بأسلوب علمي ونشر الكتاب في إطار المشروع القومي للترجمة الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة المصري.

هاجريون لا مهاجرون!



أما كتابها التالي حسب الشهرة فهو كتاب الهاجرية أو الهاجريون والذي اشتركت في تأليفه مع البروفيسور مايكل كوك (أستاذ التاريخ الإسلامي وأحد تلاميذ البروفيسور برنارد لويس) وحاول هذا الكتاب إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بالاعتماد على المصادر غير الإسلامية ورفض المصادر الإسلامية دون أي تبرير. وفي هذا الكتاب توصلا إلى أن المهاجرين ينتسبون إلى السيدة هاجر وليس إلى الهجرة من مكة إلى المدنية.

وقد صرح مؤلفا الكتاب أن أي مسلم لن يقبل النتائج التي توصلا إليها ليس لأن هذه النتائج تقلل من الدور التاريخي للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنها تقدمه في دور يختلف كلياً عما يعرفه المسلمون تقليدياً. كما ذكرا أن كتابهما كتب من قبل الملحدين للملحدين، ومما يثير السخرية أنهما اعترفا أيضا أن المسلم الذي في قلبه مثقال حبة من خردل من الإسلام لن يجد صعوبة في رفض الكتاب كليا.

بل يذكر علي خان أستاذ القانون في جامعة واشبورن بكانساس أن مؤلفي الكتاب قد اعترفا له صراحة في بعض المقابلات الشخصية أن هذا الكتاب لم يكن سوى فرضية لم تثبت صحتها وفي حين تبرأ مايكل كوك مما جاء في الكتاب وذكر أن ما توصلا إليه كان زعما خاطئا وحان الوقت لإعادة التفكير فيه، فإن كرون كانت أكثر صراحة في رفض الأطروحات التي قدمتها فيه فقالت إن الكتاب صدر في عام ١٩٧٧ وأن حماسة الشباب دفعتهما لكتابته، وأن فرضياته لم تكن صحيحة ولا جيدة.

محمد والقرآن.. في دائرة الاتهام!

في مقال آخر بعنوان "محمد الذي لا نعرفه" بدأت تسوق الحجج والبراهين التي تحمل في طياتها الكثير من المراوغات والمغالطات لتصل في النهاية لنفي نبوة الرسول، فهي تنفي وجود مصادر عن هذا النبي باستثناء المصادر الإسلامية (التي لا تعتد بها)، حتى القرآن الكريم لم يذكر الكثير عن النبي ولا عن حياته كما ذكر تفصيلا عن أنبياء آخرين سبقوه.

كما تدعي أن القرآن مليء بالمغالطات فهو يصف مشركي مكة بأنهم مزارعون يزرعون القمح والعنب والزيتون بينما مكة كانت قفرا لا تنمو فيها زراعات باستثناء النخيل.

يتضح هنا بالطبع مدى جهلها بالعربية رغم إجادتها لها فهي لا تفهم المعاني ولا تكلف نفسها عناء قراءة تفسير الآيات في كتب المفسرين فهي تشير إلى الآية الأخيرة من سورة الفتح "وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ" ولا ندري من أين أتى تفسيرها للآية لتؤكد أن القرآن وصف مشركي مكة بالمزارعين؟ ، والآية تتناول بشارة التوراة والإنجيل بمحمد وأصحابه وتشبيههم في الإنجيل بالزرع الذي بدأ ضعيفا ثم اشتد وقوي عوده وكما ذكر ابن كثير في تفسيره (أَيْ فَكَذَلِكَ أَصْحَاب رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آزَرُوهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ فَهُمْ مَعَهُ كَالشَّطْءِ مَعَ الزَّرْع)، فما علاقة الآية بوصف المشركين بأنهم مزارعون؟!

وهي تشكك في قبول القرآن كمصدر تاريخي باعتبار أنه لم يدون إلا بعد وفاة النبي، كما أن النسخ الأولى منه كانت غير منقوطة أو مشكّلة لتستنتج أن الكلمات المكتوبة ربما تحمل معاني أخرى غير التي وصلتنا بعد إتمام تنقيط الحروف وتشكيل الكلمات، وهي بالطبع لا تعترف بتلقي الأمة للقرآن بالمشافهة وتواتره بالإجماع، وفي نفس الوقت ترى أن ألفاظ القرآن مبهمة وغامضة وتستعصي حتى على المفسرين وهي تقول

ذلك دون أن تحدد من هؤلاء المفسرين الذين استعصى عليهم فهم القرآن أو ما هي المصادر التي اعتمدت عليها في تأكيد هذه الحقيقة؟.

تمضي باتريشيا قدما في التشكيك حول وجود النبي من خلال حقيقة أن صورته لم تنقش على عملات في ذلك الزمن، وأي دارس لتاريخ النقود في الإسلام يمكنه أن يرد عليها ببساطة بل ويكذب ادعاءاتها التي سبق وذكرتها بخصوص مكة وتجارتها قبل الإسلام.

فقد عرفت الجزيرة العربية قبل الإسلام العديد من أنواع النقود وتبادلت العملات المتنوعة خلال رحلات قريش للشام واليمن فكانت تحصل على النقود الحميرية من اليمن والنقود البيزنطية من الشام وكانت ترد إليها أيضا النقود الساسانية من العراق.

وحين جاء الإسلام أقر النبي التعامل بهذه النقود ولم يقم بسك عملات جديدة وسار أبو بكر الصديق على نهجه حتى جاء عمر بن الخطاب فقام بعدة إصلاحات نقدية كتوحيد أوزان العملات وإضافة كلمات عربية، أما أول من نقش اسمه على السكة فكان معاوية وكان ينقشها باللغة الفهلوية ولم يتم تعريب وسك النقود على الطراز الإسلامي إلا في عهد عبد الملك بن مروان.

ومن تتبع هذه الحقائق الثابتة تاريخيا كيف يسوغ القول بالتشكيك في وجود النبي لعدم نقش اسمه على العملة الإسلامية، وهي التي لم تسك إلا في العقد السابع بعد الهجرة؟، أي لم توجد نقود إسلامية في عهد النبي حتى ينقش عليها اسمه.

وتستمر المستشرقة كرون في المغالطات لتؤكد على تناقض القرآن وخطأ المؤرخين في تحديد مكان مكة فها هو القرآن يخبر المشركين في سورة الصافات عن قوم لوط "وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ" ومن المعروف أن قوم لوط كانوا بمنطقة البحر الميت فكيف يمكن لساكني مكة أن يمروا على هذه الديار في الصباح والمساء إلا إذا كانت مكة نفسها تقع على البحر الميت؟

وفي إجماع المفسرين على أن هذا المرور الذي ذكرته الآيات ليس مرورا يوميا بل في أسفارهم نهارا وليلا وقال قَتَادَة في تفسير الآية "نَعَمْ وَاَللَّه صَبَاحًا وَمَسَاء يَطَئُونَهَا وَطْئًا، مَنْ أَخَذَ مِنْ الْمَدِينَة إِلَى الشَّام، أَخَذَ عَلَى سَدُوم قَرْيَة قَوْم لُوط"، وفي هذا التفسير دلالة ليس فقط على موضع مكة بل وتأكيد على عالمية تجارتها التي تنفيها كرون.

نشأة الإسلام

اشتركت كرون مع جوناثان بيركي في تأليف كتاب بعنوان "تشكيل الإسلام" قاما فيه بالبحث في تاريخ الشرق الأدنى خلال الأعوام ٦٠٠ :١٨٠٠م بدراسة المشهد الديني قبل الإسلام ثم في صدر الإسلام مرورا بالدولة الأموية والعباسية ليؤكدا على أن الإسلام لم يظهر ويتشكل مرة واحدة بل كان تشكيله جزءا من عملية تدريجية طويلة تطورت فيها التشريعات الدينية، وأن أهم سمات الإسلام اكتسبها في فترة العصور الوسطى.

وبنفس الطريقة اشتركت مع تشيس روبنسون في كتاب "التأريخ الإسلامي" ليبحثا في كيف فهم المسلمين ماضيهم وكيف كانوا يكتبون التاريخ وأهم مشاكل الكتابة التاريخية العربية الإسلامية وتوظيف المسلمين للتاريخ سياسيا واجتماعيا منذ القرن الثامن حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي، ولا يخفى ما في هذين الكتابين من إشارات خفية لزيف التاريخ الإسلامي ومصادره باعتبار أنه من اختراع المسلمين أنفسهم.

ففي مقال لها على موقع " أوبن ديموكراسي " بعنوان "الجهاد: الفكرة والتاريخ" قدمت دراسة من أربعة أجزاء تناولت فيها مفهوم الجهاد الإسلامي من حيث نشأته، معتبرة أن نشأة الجهاد في الإسلام ارتبطت به منذ البداية من خلال نوعين من الحروب: ما أسمته بالحروب التبشيرية والتي تعني اتباع الدولة الإسلامية لسياسة العنف الحربي لنشر الدين الإسلامي في أرجاء العالم حيث انتشرت الجيوش لفرض الإسلام في كل مكان.

والنوع الثاني ما كان موجها للكفار الذين رفضوا الإسلام فهؤلاء يُقابلون بالعنف والقتل فيما عدا أهل الذمة في حالة قبولهم بدفع الجزية، أما لو رفضوا فإنهم يقابلون بالقتل أيضا.

وتسوق كرون مقارنة غريبة بين التبشير الإسلامي كما أسمته وبين التبشير المسيحي؛ إذ إن المبشرين المسيحيين انطلقوا مع الجيوش الغربية لغزو الدول الإسلامية كمبشرين سلميين ومدنيين لا كجنود، بينما الجنود المسلمون (الفاتحون) هم في الوقت نفسه مبشرون (دعاة).

هذا هو الفرق بين الإسلام والمسيحية، حيث الخلط بين الجهاد والدعوة في الإسلام لتصل إلى الادعاء بأن الإسلام هو دين عنف لا سلم، وينشر دعوته بالسيف لأن دعاته هم جنوده، كما تدعي أن الحروب الصليبية تتباين عن حروب الإسلام في أن الأولى لم تكن حروبا توسعية أو لتنصير المسلمين بل كانت فقط لاستعادة الأراضي المقدسة.

وتحاول كرون دائما إقناع القارئ أن تشريع الجهاد في الإسلام مر بمرحلتين متباينتين: الأولى فترة الضعف في مكة حيث لم يشرع الجهاد، والثانية فترة القوة بالمدينة؛ لذا تطرح سؤالا متكررا على ألسنة المستشرقين: هل الإسلام انتشر بحد السيف؟ لتجيب بلا تردد وبقوة: نعم. فالإسلام يريد جر الناس للجنة بالسلاسل على حد قولها! ثم يزعم أنه دين عالمي.

وتأتي بأقوال منسوبة لمجهولين دون أن تفصح عن مصادرها لتؤكد أن كثيرا من الفلاسفة شككوا في صحة الإسلام حيث قالوا إن كان الإسلام دينا بالفعل ونبيه المزعوم نبيا بحق لم يكن لينشر هذا الدين بالسيف؛ لأن الأنبياء لا يبعثون بالسيف بل بالرحمة.

تمضي باتريشيا في ادعاءاتها لتصل إلى أن الزمان دار دورته وعاد المسلمون اليوم سيرتهم الأولى من الضعف بعد فقدانهم السيادة الإسلامية على كثير من الأراضي مثل الأندلس وهنا ينقسم الفقهاء إلى فريقين: فريق أسمته الأصوليين أو المتشددين الذين يرون الجهاد ضرورة من أجل استعادة الأراضي السليبة وحتى يدخل الجميع في الإسلام، وفريق يرى أن يعود المسلمون كما كانوا في مكة فيستسلمون لحكم الكفار وإن كان ولا بد من المقاومة فليهاجروا إلى مكان آخر حتى يصبحوا في موضع قوة مرة أخرى فيعودوا لنشر الإسلام.

هذه الادعاءات جميعها من قبل كرون لا أساس لها من الصحة وتفتقر للعلمية فهي تارة تعتمد على مصادر مجهولة وأقوال منسوبة لمجهولين لتأكيد ادعاءاتها، وتارة تجتزئ النصوص القرآنية لتتوافق مع آرائها وتصوغ الحجج والدلائل من مصادر غير إسلامية لتعضيد فكرتها وتتجاهل النصوص والمصادر التي تتناقض مع رؤيتها.

فتشريع الجهاد جاء متدرجا على نمط كثير من الأحكام كتحريم الخمر والربا وغيرها فكانت سنة التدرج في الأحكام من سمات التشريع الإسلامي وليس ارتباطا بضعف المسلمين أو قوتهم، وهناك الكثير من المستشرقين المنصفين الذين فندوا مقولة انتشار الإسلام بالسيف وردوا على ادعاءات مماثلة ليس هذا محلها.

لا إكراه في الدين

على نفس النهج ألقت كرون محاضرة لها في جامعة فرايبورج عام ٢٠٠٧ حول الإكراه الديني في الإسلام ومن ثم تحولت المحاضرة إلى مقال نشر على موقع أوبن ديموكراسي في نوفمبر ٢٠٠٩ يحمل عنوان "لا إكراه في الدين" حاولت فيه تناول مفهوم الحرية الدينية والإكراه الديني في الإسلام من منظور تاريخي

اعتمدت فيه على جهل القارئ الغربي بحقائق الإسلام، حيث ساقت العديد من البراهين التي تدلل على غياب الحرية الدينية في الإسلام سواء على مستوى النص أو الممارسة، وتنوعت هذه البراهين بين نصوص قرآنية وأدلة عقلية.

فساقت الآيات التي تخدم فكرتها حول الأمر بقتال المشركين، كما تؤكد على أن العلمانية هي الشرط الضروري لقيام تعددية دينية، وفي ظل غياب العلمانية في الإسلام تنعدم الحرية الدينية ويظل الإكراه على دخول الإسلام فقط.

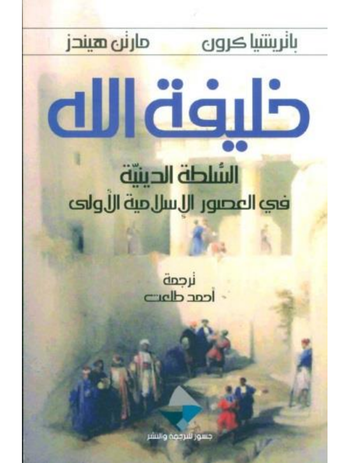
وهي تعتمد في هذا المقال على نفس الأسلوب من اجتزاء للنصوص وإخراجها من سياقها، وسوق تفسيرات للآيات بلا ذكر أسماء المفسرين أو كتب التفسير التي استمدت منها هذه التفاسير، وفي نفس الوقت تتجاهل آيات كثيرة أخرى في القرآن تؤكد حقيقة الحرية الدينية وقبول التعددية الدينية في الدولة الإسلامية على مستوى النص، كما تتجاهل الحقائق التاريخية التي تؤكد وجود التعددية الدينية وتعايش غير المسلمين في الدولة الإسلامية على مستوى الممارسة.

الخلافة والحكم

قدمت كرون للمكتبة الغربية عدة كتب حول الحكم والخلافة والدولة في الإسلام ففي كتاب "الفكر السياسي الإسلامي في العصور الوسطى" تحاول إلقاء الضوء على مفهوم الخلافة والحكم والدولة والسياسة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرورا بعهد الخلفاء الراشدين ثم بني أمية ثم العباسيين، وتصف في كتابها أحداث الفتنة بعد مقتل عثمان على أنها حرب أهلية وتشبه استشهاد عثمان بإعدام تشارلز الأول أثناء الحرب الأهلية البريطانية أو لويس السادس عشر أثناء الثورة الفرنسية.

فتريد تصوير الأمر على أنه حرب أهلية دارت رحاها بين المسلمين وحاول فيها الإصلاحيون التخلص من رموز الحكم السالف، إلا أن الاختلاف بين عثمان وبين هذين الملكين أنه لم يخضع لمحاكمة رسمية كما أن قاتليه لم يشرعوا في إقامة نظام سياسي مختلف بل على العكس قاموا باختيار الخليفة الرابع من أقارب النبي وتصوير علي بن أبي طالب على أنه مناوئ لسلفه سعى لانتزاع السلطة منه ليرد الخلافة لبيت النبي.

وفي كتابها "خليفة الله" تؤصل للتفرقة بين الفكر السني والشيعي حول الخلافة من حيث إن الخليفة قد ورث السلطة السياسية والدينية عن رسول الله في الفكر الشيعي، بينما في الفكر السني للخليفة سلطة سياسية فقط



ولم تورث النبوة، وتقوم كرون في هذا الكتاب بالخلط بين مصطلحي "خليفة الله" وهو عنوان الكتاب و"خليفة رسول الله" وهو ما يدور حوله موضوع الكتاب.

كما ألفت كتابيها "من القبائل العربية إلى الإمبراطورية الإسلامية: الجيش والدولة والمجتمع في الشرق الأدنى"، "العبيد على الخيول: تطور نظام الحكم الإسلامي"، وفي هذين الكتابين تشرح التطور الذي مر به العرب الذين أسلموا مع نبيهم من كونهم عبيدا وقبائل متفرقة إلى أن أصبحوا إمبراطورية كبيرة تغزو العالم على الخيول وبقوة السيف، والغريب أن كرون تعتبر هذين الكتابين مناقضين لكتابها "الهاجريون" لأن الأخير يرفض المذهب الإسلامي بينما الكتابان الآخران يتأسسان عليه.

ففي كتابها "العبيد فوق الخيول" قدمت دراسة عن ظاهرة تراجع الجند، ولماذا كان الحكام يختارون الجنود من الأرقاء والعبيد، وتوصلت إلى أن الدولة الإسلامية لم تتضح معالمها الكاملة إلا في خلافة عبد الملك بن مروان، وربما كان هناك بعض ملامح شكلية للدولة في زمن معاوية بن أبي سفيان، وما سبق على هذه الفترة لا تتوافر حوله مصادر كافية أو وثائق أساسية.

وهو ما يقود كرون لاستنتاجها أن تاريخ نشأة الإسلام لا يعتمد على وثائق ومصادر مؤكدة، بل مجرد مصادر أدبية متناقضة سواء برديات أو نقوش على النقود أو روايات قرآنية (والتي سبق القول إنها لا تعترف بها كمصدر موثوق فيه بل هي مصادر أدبية ثانوية).

كتاب آخر يحمل عنوان "القانون الروماني والإسلامي" حاولت فيه مراجعة أفكار جوزيف شاخت حول نشأة الشريعة الإسلامية ومصادرها لتخلص من دراستها أن القوانين الرومانية والتشريعات اليهودية التلمودية تمثل المصادر الأولى للشريعة الإسلامية، وخطورة هذا الاستنتاج تكمن في تأكيدها على أن نشأة الفقه في البصرة والكوفة والحجاز والشام لم تبدأ إلا في القرن الثاني الهجري، وبالتالي فإن النص القرآني أو النبوي لم ينشأ إلا في هذا القرن، وبالتالي فكل نصوص القرآن والسنة النبوية لم تدون إلا بعد وفاة النبي بزمان مما ينفي قدسيتها ويجعلها من وضع المتأخرين من علماء الكلام.

أخطاء منهجية

وعلى الرغم من إجادة كرون للغة العربية فإنها عندما تنقل الكلمات العربية إلى الحروف اللاتينية تنقلها بطريقة متقطعة بحيث تتداخل حروف الكلمات مما يحدث تغييرا في المعنى، وكثيرا ما تخلط بين

حرفي B,H مما يحدث تغيرا في المبنى والمعنى لمن لا يجيد العربية، كما أنها كثيرا ما تخطئ في الإشارة إلى السور والآيات القرآنية، وهي دائمة التشكيك في المصادر الإسلامية معتبرة إياها من المصادر الأدبية الثانوية.

وكثيرا ما تحاول كرون تشتيت القارئ بالإتيان بروايات متعددة حول نفس الواقعة لتوهم القارئ أن ثمة تعارضا بين الروايات، ولكنها تتوقف عند هذا الحد ولا تمضي للخطوة التالية التي يجب على الباحث المنصف أن يتبعها ألا وهي دحض الروايات وبيان الصحيح منها والخاطئ، ولكن توقف كرون يشير إلى هدفها المتمثل في تلبيس الحقائق وتضليل القارئ دون رغبة حقيقية في كشف مدى صحة الروايات من عدمه لتصل باستنتاجاتها لرفض المصادر كلها طالما بها تناقض.

ومن الأخطاء المنهجية التي تنتشر في كتابات كرون أنها تبدأ غالب كتبها بفرضية لا تستند على أي أساس في مقدمة الكتاب إلا أنها مع صفحات الكتاب تتعامل مع هذه الفرضية على أنها حقيقة واقعة وتبني استنتاجاتها عليها على الرغم من عدم قيامها بإثبات صحة هذه الفرضية، وهي بهذا تستخف بعقول القراء الذين يعتقدون أنها ربما أثبتت افتراضاتها في مواضع أو كتابات أخرى وهي تعتمد على هذا الاعتقاد كثيرا.

ومن المعروف أن عمل المؤرخ يرتبط بتحليل الأحداث التاريخية إلا أن كرون لا تكتف بتحليل الأحداث بل تضع فرضيات تخيلية كأن تسأل ماذا لو قامت دعوة النبي في المدينة بدلا من مكة؟، ويكمن الخطأ في مثل هذه الفرضيات في أنها تقود المؤرخ لسلسلة من الافتراضات الخيالية التي لا ينبني عليها حكم.

وفي كثير من الأحيان ترفض كرون إحدى الروايات أو المصادر ثم تستشهد في موضع آخر بنفس الرواية التي سبق ونفت صحتها؛ لأن بها ما يؤيد ادعاءاتها، فعلى سبيل المثال ترفض قبول ما أسمته بالرواية التقليدية حول حياة النبي صلى الله عليه وسلم وما ذكر فيها من قيام قريش بعرض المال والملك على النبي ليكف عن دعوته، ولكنها في موضع آخر تقبلها كما هي كما لو كانت رواية صحيحة في نظرها لتستنتج أن مشركي قريش قد فهموا حقيقة ما يرنو إليه النبي من ملك وسلطة وإلا ما كانوا عرضوا عليه هذا العرض؛ لأنهم فهموا أن قبول دعوته معناها قبولهم له كحاكم لا كرجل يهتم بأمور الآخرة.

ويتضح من ذلك أن كرون بنت استنتاجها الذي توصلت إليه على استقطاع جزء من رواية سبق ونفت صحتها كليا، فلا مانع لديها من قبول الرواية التي ترفضها وتنفي صحتها طالما أن بها تأييدا لفكرتها.

وتبقى باتريشيا كرون نموذجا يمثل التيار الاستشراقي المتعصب في العصر الحديث، والتي تنتمي للمدرسة التاريخية المجاهرة بتعصبها ضد الإسلام والمعتمدة على ليِّ أعناق النصوص القرآنية واجتزائها من سياقها ورفض الاعتماد على المصادر الإسلامية، وتشويه الحقائق التاريخية بالاعتماد على مصادر غربية متحيزة لتضليل القارئ الغربي، وتشويه صورة الإسلام في إطار مغلف بثوب من البحث العلمي المحايد.

ꙮꙮꙮꙮꙮ

المستشرقة باتريشيا كرون: العلمانية شرط الحرية!



تثير قضية الحرية الدينية في الإسلام اهتمام المفكرين المسلمين والغربيين على حد سواء، وكانت هذه القضية محور اهتمام المستشرقة الدانمركية باتريشيا كرون-التي تتخذ موقفا سلبيا من الإسلام، والتي كتبت كثيرًا عن غياب الحرية الدينية في الإسلام – وتؤكد كرون على حداثة مفهوم الحرية الدينية بشكل عام؛ وترى أن الإسلام لم يشهد أي ممارسة حقيقية للحرية الدينية، بل ربما كان هناك نوع من التسامح الديني الجزئي، وتشترط كرون قيام نظام سياسي علماني لضمان تطبيق الحرية الدينية، كما أنها ترى أن المسلمين في الغرب بإمكانهم التعايش مع المجتمعات العلمانية بشرط التخلي عن حساسيتهم تجاه أي مضايقات قد تحدث لهم.

قمت بمحاورة المستشرقة باتريشيا كرون لتلقي مزيدًا من الضوء على حقيقة طرحها عن الحرية الدينية في المجتمعات الإسلامية، وما قدمت من مبررات لهذا الرأي الذي تتبناه. كان الحوار بالإنجليزية وقد أصرت كرون على قراءة نص الحوار باللغة العربية بعد كتابته وقبل نشره.

إلى نص الحوار:

* ما سر اهتمامك بحقل الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي؟

– اهتمامي الأساسي ينصب على دراسة حضارات الشرق الأدنى القديمة كالسومرية والبابلية وغيرهما، وبعد التعمق في دراسة هذه الحضارات اكتشفت أنها تختلف تماما عن حضارة بلادي؛ لذا أردت البحث في كل ما هو غير أوروبي.

قرأت عن الصين، واليابان، وأفريقيا، وأمريكا قبل اكتشاف كولومبوس لها، وغيرها الكثير، كانت هذه القراءات كلها أثناء مرحلة دراستي قبل الجامعية؛ ومن ثم قررت الاستمرار في دراسة الشرق الأدنى، فبعد أن انتهيت من الحضارات القديمة تتبعت باقي المراحل، ووجدت أن المرحلة التالية كانت الحضارات اليونانية والرومانية، ولكنني درست هذه الحضارات؛ لذا انتقلت للمرحلة التالية وهي الحضارة العربية والفارسية وغيرهما، ولأنني لم أكن أعرف شيئا عن هذه المراحل التاريخية فقد قررت دراستها لأعرف كل شيء عنها.

المصادر

* في الغالب ما هي المصادر التي تعودين إليها في الكتابة حول الدراسات الإسلامية؟

– تختلف المصادر التي أعتمد عليها تبعا للمجال الذي أكتب فيه، فقد كتبت حول التطور الاجتماعي، والمجال العسكري والقانوني، والثقافة والأدب وغير ذلك فيما يخص فترة نشأة الإسلام الأولى، وطبيعة المصادر اختلفت في كل موضوع تناولته، ولكني أومن أن الكاتب عليه أن يعتمد على كل مصدر يقع تحت يده.

* وهل ترين هذه المصادر كافية لتكوين معرفة صحيحة ومتعمقة حول الإسلام؟

– هذا ما لا أهتم به ولا أحاول القيام به! أنا معنية بالأساس بدراسة جوانب محددة من التاريخ والحضارة الإسلامية وليس بالإسلام ككيان كبير وغامض.

فما هو الإسلام؟ هو ما يقوله المسلمون. وماذا يقول المسلمون؟ الاجابة تعتمد على أين ومتى ومن؛ لذا فهذا هو ما قررت دراسته، فما يعتقده المسلمون عن الإسلام يتباين في العصر الأموي أو في ظل البويهيين عما يعتقده المسلمون اليوم، وما يعتقده الشيعة يختلف عما يراه السنة، وما يؤمن به الإيرانيون يختلف عما يؤمن به الصينيون وهكذا. أنا لا أدعي معرفة ما يعتقده جميع المسلمين في جميع أنحاء العالم منذ بداية الإسلام حتى اليوم، ولا يستطيع أحد أن يدعي لنفسه تلك المعرفة.

* في المقابل كيف يمكن للباحث غير المسيحي أن يدرس المسيحية؟ ما هي المصادر التي يجب أن يعود إليها في دراسته؟

– لا يوجد فرق بين دراسة الإسلام والمسيحية، فمصادر الدراسة تعتمد على مجال الدراسة لا على ما يؤمن به الباحث من دين. واللاهوت المسيحي موضوع هائل يشمل المسيحية المبكرة والوسطى والحديثة، والمعاصرة، يشمل أيضا الفكر الأرثوذكسي والبروتستانتي... فيجب أن يحدد الباحث تخصصًا معينًا ليدرسه، ولكن بشكل عام عليه أن يرجع للكتاب المقدس بالعهدين القديم والجديد، ثم أقوال آباء الكنيسة اليونانيين واللاتينيين؛ لأن تفسيرات وأقوال كل منهم تختلف عن الأخرى مثل تباين تفسيرات مفسري الإسلام للقرآن واختلافهم في التفسير، بل اختلاف التفسير السني عن الشيعي، والتفسير القديم عن التفسير الحديث وهكذا....

ولكن تبقى النصوص الأساسية المسيحية غير كافية لتكوين معرفة شاملة؛ لأن هذه النصوص مثل السنة النبوية في الإسلام تعد كمصادر خام للمعلومات تحتاج لمزيد من التفصيل والشرح.

الحرية الدينية

* ما هو تعريفك لمفهوم الحرية الدينية؟ وما هي مظاهر هذه الحرية؟ وما الشروط الواجب توافرها لقيام هذه الحرية؟

– مفهوم الحرية الدينية واضح بما فيه الكفاية: فهو يعني أن للإنسان الحرية في اختيار أي دين يشاء طالما أنه لا يتعارض مع الحياة الاجتماعية (لن يقبل مثلا دينا يستهدف إبادة البشر)، كما أن له الحرية في أن يختار عدم الإيمان بأي دين على الإطلاق.

ومظاهر هذه الحرية تكمن في أن يختار الناس بحرية بلا أي قيد: فالمسيحي له أن يتوقف عن الذهاب للكنيسة، وله أن يتحول للبوذية أو للإسلام والعكس صحيح، وله أن يتوقف عن الاعتقاد في أي دين، بل له الحق في أن يصوغ بنفسه نسخة خاصة من دين معين، مثلاً نسخة خاصة به من المسيحية أو البوذية أو الإسلام، ولا يحق للدولة أن تتدخل على الإطلاق في هذا الشأن.

أما الشروط الواجب توافرها لقيام هذه الحرية فتتلخص في قيام دولة علمانية بالمعنى الصحيح لكلمة علمانية. في الشرق الأوسط يعتقدون أن العلمانية تعني الإلحاد، وهذه نظرة خاطئة بالطبع، فأمريكا دولة علمانية إلا أن معظم الأمريكيين عميقو الإيمان والتدين ويرتادون الكنائس بكثرة، فالدولة العلمانية هي تلك الدولة التي تعتبر الدين شأنا خاصا.

* أنتِ إذن ترين أن الحرية الدينية تتطلب دولة علمانية لتطبيقها، فهل استندت في هذا الرأي للتجربة المسيحية الغربية بعد سلسلة الحروب الدينية في أوروبا؟

– وجهة النظر هذه تستند إلى العقل والمنطق، فإذا كانت الدولة مسيحية أو إسلامية (أي ترى نفسها حامية حمى دين معين) ولا تعتبر الدين شأنًا خاصًا فإننا سنكون في مواجهة حقيقة أن الناس يجب أن يلتزموا باعتناق هذا الدين الرسمي الذي تدين به الدولة حتى لو كانوا غير مقتنعين به، فالأطفال سيدرسون مبادئ هذا الدين الرسمي في المدارس دون سواه، ورجال السياسة سيؤسسون مبادئهم الأيديولوجية على هذا الدين وهلم جرا.

والمسيحية الغربية لم تصبح علمانية تماما بعد انتهاء الحروب الدينية في فترة النهضة، ولكنها في نهاية المطاف طورت فكرة التسامح الديني، وهذا أدى إلى التسامح مع الأقليات الدينية، ولكن هذا التسامح يختلف عن الحرية الدينية.

فالحرية الدينية وصلت أوروبا متأخرة جدا والعلمانية (أي فصل الدولة عن الكنيسة) لم تتم إلا في وقت لاحق في القرن التاسع عشر، وما زالت دول أوروبية حتى اليوم بها بعض بقايا بالية من مزج الدين بالدولة.

* ولكن هناك فارق بين طريقة إرساء مبدأ الحرية الدينية في كل من المسيحية والإسلام؛ فالمبدأ تم إرساؤه في المسيحية بعد سلسلة من الحروب الدينية أي فرضته الظروف، بينما في الإسلام جاء بأمر إلهي، فهل ترين مع هذا أن الإسلام يجب أن يقيم دولة علمانية لتأكيد الحرية الدينية؟

– أنتِ تخلطين بين الحرية الدينية والتسامح الديني، فالإسلام قد يكون أرسى مبدأ التسامح الديني مع الأقليات والمذاهب الإسلامية؛ فللمسلم حرية الاختيار بين المذهب المالكي أو الحنفي، ولكن حين يصل الأمر لترك المسلم دينه والتحول لدين آخر فلا يوجد تسامح؛ لذا فلا وجود للحرية الدينية في الإسلام ولم تنشأ بأمر إلهي.

أما الحرية الدينية فيشترط لها دولة علمانية بحيث تكون العلاقة بين الدولة والإسلام مقطوعة تماما، بمعنى أن أي شأن من شؤون الدولة لا يقوم على الإسلام بل يقوم على اعتبارات عملية واقعية بغض النظر عن القيم الدينية، فالإدارة العسكرية والشرطة وقانون التقاضي والادارات المحلية وغير ذلك من إدارات الدولة منفصلة عن قواعد الدين، الكتب والأفلام لا تخضع للرقابة الإسلامية، المدارس العامة تدرس جميع الأديان للأطفال وليس الإسلام فقط (فيما عدا المدارس الخاصة الدينية)، الإسلام نفسه يصبح شأنًا خاصًا ولكل فرد الحق في أن يؤمن بما يحلو له من دين وأن يختار بنفسه، وبالتالي فلن يكون هناك اضطهاد لطوائف مثل البهائيين أو الأحمديين وغيرهما في ظل الدولة المسلمة.

كل هذا يجعلني أؤكد على حقيقة أنه لا يوجد حرية دينية في الإسلام، فلا يوجد سوى التسامح، وحتى هذا التسامح هو في أضيق الحدود، فهو مرهون بالتسامح مع أهل الذمة فقط إذا دفعوا الجزية، والمرأة المسلمة ليس لها الحرية في الزواج من غير المسلم، وأهل الذمة لا يرثون من أقربائهم المسلمين، وهم مجبورون على ارتداء زي يميزهم عن المسلمين، وهناك كثير غير ذلك مما ينتقص من التسامح.

* إذن أنت ترين أن الإسلام يقف على النقيض من العلمانية ولا يمكن لهما أن يتكاملا؟

– الإسلام يقف على النقيض من العلمانية، شأن كل الأديان وإن كان التباين بينه وبين العلمانية أشد من المسيحية أو البوذية، حيث نشأت الدولة تماما في نفس وقت نشأة الدين، فتأصلت عقيدة أن المسلمين لا يمكنهم العيش في ظل سيادة غير المسلمين، وإذا حدث ذلك فيجب عليهم الرحيل لدولة مسلمة، على النقيض من ذلك فإن المسيحية والبوذية يبدآن من تقرير حقيقة أنه لا توجد سياسة هنا أو هناك، بل نتركها للملوك، فاهتمامهما ينصب على فكرة الخلاص؛ لذا تقبل هؤلاء الفضاء العلماني بسهولة منذ البداية.

أما المسلمون فقد بدأوا بالقول إن الإسلام يشمل كل المجالات، وهناك بعض المسلمين شعروا بالحاجة لفضاء غير محكوم بالإسلام بالفعل، وكثير من المسلمين المندمجين في المجتمع في أوروبا وأمريكا يعتقدون أن الإسلام والعلمانية يكمل كل منهما الآخر، ولكني لا أدري إن كانوا يعتقدون أن النظام العلماني سيصلح في الدول الإسلامية أيضا، ومع ذلك فإني أظن أن الإسلام الذي سيصبح مهيمنا على الصعيد العالمي في المدى الطويل هو الإسلام الذي يرى نفسه متعايشا مع العلمانية.

* في ظل قراءتك للتاريخ الإسلامي منذ نشأته ألا يوجد فترة تعتبرينها نموذجا حقيقيا لتطبيق المسلمين لمبدأ الحرية الدينية؟

– لا، فالحرية الدينية ظاهرة حديثة ولم توجد في الماضي في أي حضارة.

* في ظل الحروب الصليبية التي رفعت الصليب شعارا لها ظل المسيحيون العرب الذين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية محتفظين بكامل حرياتهم الدينية ولم يخلط المسلمون بين الغزاة وبين المواطنين بسبب الدين، ألا تعتبرين ذلك أحد مظاهر تطبيق الحرية الدينية في الإسلام؟

– لا، وإن كان يمكن اعتبارها نوعا من التسامح لكنها ليست حرية بالمعنى التام، وأنا لا أعرف الكثير عن الحملات الصليبية أو مدى تأثيرها على الأقليات المسيحية في الدول الإسلامية، ولكن مسيحيو سوريا مثلا لم يجدوا بالتأكيد صعوبة في التمييز بينهم وبين الصليبيين، فمسيحيتهم تختلف عن الصليبيين، كما أنهم كانوا يعتبرونهم غرباء.

* ذكرتِ في مقالك أن آية "لا إكراه في الدين" بتفسيراتها الستة المختلفة لا تعبر عن وجود حرية دينية حقيقية في الإسلام، فهل قرأت آيات أخرى من القرآن مثل "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، و" أَفَأَنْتَ

تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"، و "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، وغيرها من الآيات؟ ألا ترين مع ذلك أن الإسلام قد وضع الأساس النظري للحرية الدينية؟

– من حيث الأسس النظرية نعم أقرها، لكن كل شيء يعتمد على كيفية تفسير العلماء للآيات لأغراض تطويعها للشريعة الإسلامية، فقد ناقشت في محاضراتي آيات التسامح، وبينت أن بعض الفقهاء يرون أن هذه الآيات نزلت في مكة أثناء فترة ضعف المسلمين وعجزهم، ثم نسخت في المدينة حين أصبح لهم دولة وقوة وفرض الجهاد، وهناك علماء آخرون يرون أنها لم تنسخ ولكنها تبين أنه لا يجوز إكراه أهل الذمة على ترك دينهم (أي إنها حرية دينية جزئية مخصصة لطائفة بعينها)، وما زال هناك البعض الذي يرى أنها ليست آيات آمرة بل مقررة لحقيقة أن الله لا يجبر أحدا على الإيمان (المعتزلة). أي إن التفسيرات المختلفة لهذه الآيات تتشابه مع آية "لا إكراه في الدين".

اليوم بعد أن تغيرت الأمور، يمكن أن يتم إعادة تفسير الآيات لدعم مبدأ الحرية الدينية بالمعنى الكامل للكلمة، وقد بدأ بعض علماء الشيعة في أمريكا القيام بذلك، وإن كنت لا أدري هل سيحذو الآخرون حذوهم أم لا.

المسلمون والغرب

* هل تعتقدين أن الإسلام يمكنه التعايش مع النظم السياسية الوضعية؟

– في الواقع هو يتعايش فعلا. فهناك ١٦٠ مليون مسلم في الهند، و٢٠ مليون مسلم في الصين، و٣٠ مليون مسلم في أوروبا....، وإذا كنت أتذكر بصورة صحيحة فإن حوالي خُمس المسلمين في العالم يعيشون في ظل دول غير مسلمة.

لذا فإن السؤال ليس حول إمكانية التعايش بل حول إذا كان المسلمون أنفسهم سيقررون أن هذا هو المقبول تماما لهم بدلا من أن يعتبروا التعايش أمرا يجب تلافيه في المستقبل.

إذا قبل المسلمون بالتعايش فإن العلاقة بين الإسلام والتنظيم السياسي ستنفصل ليس فقط في الممارسة ولكن أيضا في أذهان الناس، وكل هذا ربما يسهل عملية التوجه نحو الحرية الدينية.

* ألا ترين أن الاستفتاء السويسري على حظر المآذن يتعارض مع مبدأ الحرية الدينية على الرغم من علمانية المجتمع السويسري؟

ربما يكون ذلك صحيحا، وإن كنت لا أدري حقيقة الوضع عن أسباب هذا الحظر، فإذا كان هذا الحظر لما تسببه مكبرات الصوت لهذه المآذن من ضجيج في الصلوات الخمس فإن هذا الحظر يجب أن يتم بالفعل سواء للمآذن أم لأجراس الكنائس، فكلما قلت الضوضاء كان الوضع أفضل.

وإن كنت لا أعتقد أن هذا هو سبب الحظر، ولكن إن قررت سويسرا أن تصبح دولة بلا حرية دينية فهذا حقها تماما كما تفعل السعودية من حظر لبناء الكنائس، فهل يجرؤ أحد هناك على بناء كنيسة أو دق أجراسها؟!

* وفي ظل ما يمارسه الغرب من تضييق للحريات الدينية الأخرى على المسلمين كمنع الحجاب مثلا هل ترين أن هناك مستقبلا للحوار والتعايش بين المسلمين وغيرهم في الغرب؟

ومن الذي منع الحجاب؟

إن كنت تقصدين النقاب فإن النقاب يجعل المرأة تبدو كلصوص البنوك، لا يمكن التأكد مما إذا كانت تستخدم بطاقة هوية زوجها أم أحد أبنائها، ولا يمكن التحدث معها لأنها تبدو كالشبح المخيف.

ثم لماذا اختزال الإسلام في الثياب؟!

أما إذا كان الأمر فيما يخص بعض الممارسات الأوربية كمنع فرنسا للطالبتين المحجبتين من دخول المدرسة أو حظر سويسرا للمآذن فكل هذه المضايقات لا تمثل الغرب كله ولا تعبر عن الأوربيين جميعا، فما زال المسلمون يتعايشون بالفعل في الدول الأوروبية، ومنع فتاة من الحجاب أو حتى حظر المآذن ليست قضية ذات أهمية لنقيم الدنيا حولها، فالأمر لم يصل مثلا لقتل المسلمين أو اعتقالهم أو منعهم من ممارسة حقوقهم المدنية أو منعهم من ممارسة شعائرهم الدينية سواء في سويسرا أو في باقي الدول الأوروبية.

ولكن السؤال هو ما إذا كان المسلمون سينجحون في التعايش رغم هذه المضايقات، وما الذي سيقدمونه لإنجاح هذا التعايش وجعله أقل توترا؟

ஐஐஐஐஐ

الجهاد الناعم".. عودة الإسلاموفوبيا..

هل يغزو الإسلام المدارس الأمريكية؟

ما زال شبح أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ يلاحق الأمريكيين في حربهم على الإرهاب، والتي يروج لها بشدة صناع القرار الأمريكيون، وفي الوقت الذي يظهر فيه الكثيرون مزيدا من التفاؤل بشأن نجاح هذه الحرب الكونية ضد الإرهاب تصاعدت أصوات أخرى تؤكد أن الخطر القادم لا يتمثل في إرهاب السلاح، بل فيما يسمى إرهاب الفكر.

فيرى بعض المحللين الأمريكيين أن الإرهاب الإسلامي –على حد قولهم– قد طور في وسائله، ففي حين فشلت الهجمات الإرهابية المسلحة اتجه الإسلاميون إلى ساحة الفكر والأيديولوجيا، والتي يمكنها أن تقصم ظهر الديمقراطيات الغربية وتضربها في مقتل دون إراقة قطرة دم واحدة، وفي إطار هذا التوجه ارتفعت العديد من الأصوات التي تحذر من موجات غزو فكري إسلامي في المدارس الأمريكية، أطلق البعض عليها مصطلح "الجهاد الناعم"، إشارة إلى مد إسلامي في المدارس العامة في أمريكا، ورأى هؤلاء أن أول ضحايا هذا الجهاد هم الأطفال في المراحل الابتدائية والمتوسطة، وأن هذا "الغزو الأيديولوجي الإسلامي" قد انتشر في التعليم الأمريكي، سواء في الكتب المدرسية أو المناهج الدراسية أو في عروض الأفلام أو المحاضرات التدريبية للمعلمين، مما يشكل نوعا من الاعتداء على التعليم العام في أمريكا واختراقا منظما له.

تعليم أم تلقين؟



ومن بين هذه الأصوات كتبت "سينامون ستيلويل" دراسة حول الاختراق الإسلامي للتعليم العام في أمريكا بعنوان "الإسلام في المدارس الأمريكية العامة: تعليم أم تلقين؟"[١]، وأوردت سينامون العديد من الأمثلة لتؤكد مزاعمها حول هذا الاختراق، ومن أهمها :

أن الطلاب في مدرسة "فريندزوود" بهيوستن قد أجبروا في شهر مايو الماضي على حضور عرض للتوعية الإسلامية في الوقت المخصص لحصة التربية البدنية، وتم العرض في حضور ممثلين عن مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، وقد ذكر الطلاب أنهم

تعلموا في هذا العرض أن هناك إلها واحدا يطلق عليه لفظ "الله"، وأن آدم ونوحا وعيسى أنبياء، كما تعلموا أيضا أن هناك خمس صلوات في اليوم، وأن الفتيات يجب أن يرتدين الحجاب، وبالطبع لم يتم إخطار أولياء الأمور بهذا العرض قبل تقديمه، مما أدى لتقديم العديد من الشكاوى التي انتهت بمجرد خطاب اعتذار[٢].

وفي مطلع هذا العام شهدت إحدى المدارس الثانوية بمقاطعة سيمينول محاضرة ألقاها متحدثون من أكاديمية تعليم الإسلام تحت عنوان "التنوع الثقافي"[٣]، والتي امتدت لتشمل مناقشة تفصيلية حول الإسلام والقرآن في الوقت الذي لم يتم فيه إخطار أولياء الأمور بهذه المحاضرة فارتفعت الشكاوى التي انتهت بتغطية إعلامية وتحقيق رسمي أدان هذه المحاضرة واعتبرها انتهاكا للقانون الأمريكي.

فوبيا الإسلام

ورصد مجلس الصحافة في العام الماضي مشروعا مدرسيا بمدرسة "إمهيرست" بمقاطعة نيو هامبشير، حيث أقيم مخيم سعودي مفتوح تم فيه فصل الأولاد عن البنات وقاموا بنصب الخيام العربية، وارتدى الأولاد الجلباب والعقال السعودي، في حين ارتدت الفتيات العباءات السعودية السوداء، كما قام الأولاد بتقديم المشروبات مع بث مباشر من إذاعة القرآن الكريم، والتي عرضت تلاوات من القرآن والصلاة من الحرم المكي، ورأت سينامون في ذلك نوعا من الإرهاب الفكري، خاصة تجاه الفتيات –حسب ما تقول– اللاتي أجبرن على هذه التقاليد السعودية التي تمنع مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية.

أما أكاديمية طارق بن زياد بمقاطعة منيسوتا فتعد إحدى المدارس الإسلامية المستقلة على الرغم من قيامها بدفع الضرائب الحكومية، فقد سلطت الكاتبة كاترين كريستن[٤] الضوء على أنشطة المدرسة وأثارت المخاوف بشأن التمويل العام للتعليم الديني العلني، حيث تمارس شعائر العبادات داخل المدرسة وترتدي الفتيات الزي الإسلامي ويتعلم الطلاب القرآن الكريم ويتناولون الأطعمة الحلال فقط.

وكانت المحطة التلفزيونية المحلية قد قامت بعرض تقرير مصور من داخل المدرسة مبرزا المخاوف حول وجود هذه النوعية من المدارس في أمريكا، مما دفع بوزارة التعليم في ولاية منيسوتا لإجراء تحقيق حول خطورة هذه المدرسة.

ويستمر الجدل بشأن تأسيس أكاديمية جبران خليل الدولية بنيويورك التي تدرس اللغة العربية، حيث دفعت الضغوط العديدة على مديرة المدرسة السابقة "ديبي المنتصر" للاستقالة بعد أن دافعت عن طبع شعار الانتفاضة على "تي شيرتات" قامت ببيعها بعض الناشطات العربيات، وقامت بتفسير كلمة انتفاضة، ومازالت

المخاوف حول هذه المدرسة، ويرى البعض أن تعليم اللغة العربية يسهم في تفريخ أجيال جديدة من المتشددين إسلاميا، والذين هم وقود مستقبلي للإرهاب.

وفي الوقت نفسه حذر البعض من وجود ثلاثة أئمة في مجلس إدارة مدرسة جبران خليل، أحدهم الشيخ خالد لطيف الذي أرسل رسالة تهديد لرئيس جامعة واشنطن احتجاجا على الرسوم الدنماركية المسيئة للإسلام، مما دفع بالعديد من أولياء الأمور لتبني حملة لوقف هذه المدرسة ووقف الدعم الحكومي لها[٥].

غزو المناهج

وأكدت سينامون أن هذا "الغزو الإسلامي" لم يقتصر على الأنشطة المدرسية فقط، بل امتد للمناهج الدراسية المتداولة في المدارس الأمريكية العامة بتدريس الإسلام والتاريخ الإسلامي.. فمؤسسات مثل مجلس التعليم الإسلامي ومركز مصادر العالم العربي والإسلامي أخذت على عاتقها مهمة فحص وتعديل الكتب الدراسية في المدارس العامة بشكل مباشر، ولذا فقد ثارت التساؤلات حول هذه المؤسسات وأجندتها الأيديولوجية؛ وهذا ما دفع جلبرت سيوال مدير المجلس الأمريكي للكتب المدرسية [٦] لكتابة سلسلة من المقالات للتحذير من التدخلات الإسلامية في المناهج الأمريكية، ختمها بتقرير أصدره الشهر الماضي بعنوان "الإسلام في الفصول المدرسية.. ماذا تخبرنا الكتب المدرسية؟"[٧]، حيث أكد أن نتائج مراجعة الكتب المدرسية كانت مرعبة، فهناك أخطاء وأجزاء من المناهج تفتقر للدقة، حيث تعظم من شأن الإسلام في الوقت الذي تحقر فيه الأديان الأخرى وتعاديها.

ورأى جلبرت أنه إذا كان تعليم التلاميذ الإسلام في حصص الدراسات الدينية شيئا مناسبا، فإن الغرض يكون مشكوكا فيه حين تعرض المعلومات بهذه الصورة، ومن بينها ما عرض في كتاب "التاريخ على قيد الحياة: العالم في القرون الوسطى وما بعدها"، والذي صدر عن معهد مناهج المعلمين TCI، ونجح أولياء الأمور بأريزونا في استبعاده من المناهج الدراسية منذ عام ٢٠٠٥، ولكنه ما زال يدرس في ولايات أخرى ويحوي مئات الصفحات عن تمجيد تاريخ المسلمين في العصور الوسطى.

اختراق سعودي

وتسود الاعتقادات أن هذه المناهج تأتي بتمويل سعودي مع توجيه الاتهامات للحكومة الأمريكية بتغاضيها عن هذه الاختراقات طالما تدخل الأموال السعودية خزائنها، فعلى حد قول ستانلي كيرتز [٨]: إن الحكومة الأمريكية تدفع الأموال لمركز دراسات الشرق الأوسط الذي يقوم باعتماد المناهج الدراسية الأمريكية، ولكن

في الحقيقة السعوديون هم من يمولون هذا المركز ويعدون هذه المناهج، بينما الحكومة الأمريكية تغط في النوم.

ويرى البعض أيضا أن السعودية تقوم بتمويل وتصميم الدورات التدريبية للمعلمين، وللتدليل على ذلك يسوقون الأمثلة حول ما تقوم به مؤسسة الوليد بن طلال من تمويل مركز التفاهم الإسلامي المسيحي بجامعة جورج تاون، والذي يقدم ورشا تطويرية احترافية لمعلمي المدارس العامة، وهذه الورش تقدم بالمجان، بل يتخللها تقديم وجبة مجانية، ويرى الصحفي الأمريكي بول سبيري[٩] أنه ليس من المستغرب أن تظل سوزان دوجلاس مستشارة تربوية في مجلس التعليم الإسلامي لأكثر من عقد، والمعروف عنها أنها درست الدراسات الاجتماعية في الأكاديمية الإسلامية السعودية في فايرفاكس، حيث ما زال زوجها يقوم بالتدريس هناك، وهذه الأكاديمية قد خضعت للتحقيقات بدعوى تحريضها على الكراهية والتعصب تجاه غير المسلمين، وهذا ما دعا بول سبيري لمهاجمة مركز التفاهم الإسلامي المسيحي، حيث يؤكد أن وجود سوزان دوجلاس في قائمة موظفي هذا المركز مدعاة للقلق نظرا لخلفيتها الوهابية، على حد قوله.

وترى "سينامون" أنه مما يثير السخط أننا في الوقت الذي ما زالت فيه جماعات أمريكية تدعو لفصل الدين عن الدولة ومنع تدريس المسيحية في المدارس نجد مثل هذا الصعود الإسلامي في نفس الساحة مع الصمت الحكومي؛ مما يؤكد أن "الدولار السعودي" قد أخرس الألسنة؛ وتؤكد أنه لا سبيل لمكافحة إساءة الحكومة لاستخدام المدارس العامة والمناهج الحكومية إلا بإشراك المجتمع المحلي، وذكرت أن هناك العديد من التحالفات من أولياء الأمور قد نجحت بالفعل في تعديل بعض المناهج وممارسة نوع من الضغط على السياسات الحكومية.

أما النائبة المتطرفة بمجلس النواب الأمريكي سو ميرك [١٠] فقد وجهت دعوة للرئيس الأمريكي بعنوان "١٠ نقاط لاستيقاظ أمريكا" وشملت دعوتها لإصلاح المناهج السعودية، وهي دائما تركز على نظرية الجهاد التي نادرا ما يفهمها الساسة الأمريكيون على حقيقتها، على حد قولها.

ولا شك أن كل هذه الرؤى والاتجاهات الأمريكية تعبر عن ذعر حقيقي تجاه خطر الغزو الفكري المزعوم، وتدل هذه الأفكار على الرؤى السلبية المسبقة عن الإسلام والنظر إليه بافتراضات ذهنية خاطئة دون محاولة النظر إليه نظرة موضوعية والتعرف الصحيح عليه، كما أنها توضح الاتجاه السائد لدى بعض الأمريكيين باستبعاد الإسلام من خلال التعتيم عليه وإلا فما الذي يخيف الأمريكيين من تعرف الطلاب على انجازات الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى أو التعرف على حقيقة هذا الدين سوى أنهم يكرسون لمزيد من

الفهم الخاطئ للإسلام خاصة لدى الأجيال الناشئة التي يجب أن تتشرب كراهية الإسلام والمسلمين وهذا بالتأكيد ليس في صالح الدعوات للتقارب الثقافي أو الحضاري بل إن كل هذه الاتجاهات تسير في اتجاه صدام الحضارات كما بشر به صمويل هنتنجتون منذ تسعينيات القرن الماضي وما زال المفكرون والكتاب يروجون له حتى اليوم.

ﮓﮓﮓﮓﮓ

---

[1] http://www.sfgate.com/cgi-bin/article.cgi?f=/g/a/2008/06/11/cstillwell.DTL
[2] http://wnd.com/index.php?fa=PAGE.view&pageId=65659
[3] http://www.wftv.com/news/15982456/detail.html
[4] http://www.startribune.com/16404541.html
[5] http://stopthemadrassa.wordpress.com/2007/07/24/why-we-oppose-the-the-khalil-gibran-international-academy/
[6] أنشئ المجلس الأمريكي للكتب المدرسية عام ١٩٨٩ لمراجعة كتب الدراسات الاجتماعية
[7] http://www.historytextbooks.org/islamreport.pdf
[8] http://article.nationalreview.com/?q=YjRhZjYwMjU4MGY5ODJmM2MzNGNhNzljMzk4ZDFiYmQ
[9] http://www.worldnetdaily.com/index.php?pageId=24442
[10] http://www.house.gov/list/press/nc09_myrick/wakeupamerica41808.html

مجلة "الرأسمالية" منبر متجدد لتشويه الإسلام



عديدة هي المنابر التي يتخذها أعداء الإسلام للنيل منه وتشويه صورته لدى الإعلام الغربي، سواء منه المرئي أو الالكتروني، وترتفع أصوات الكراهية والعداء من كثير من الكُتاب الغربيين الذين لا يكلون في سبيل تحقيق أغراضهم في إثارة الرأي العام ضد الإسلام والمسلمين، ومن ثَمَّ تقويض الجهود التي يبذلها المسلمون في محاولات الاندماج في المجتمعات الغربية.

ومن بين هذه المنابر تطل علينا مجلة "الرأسمالية"[١]، التي تحرص على الاستمرار في دورها كي تقطر سمومها وأحقادها ضد الإسلام، وذلك تحت دعوى حرية الفكر والتعبير التي تتبناها المدرسة الرأسمالية. والتي تفتح أبوابها وصفحاتها لاستقطاب الأقلام الخبيثة التي تواصل مسيرة المجلة في تشويه صورة الإسلام، وتصويره على أنه دين العنف والدموية.

عَقْدٌ من الكراهية

على مدى أكثر من عشر سنوات منذ إطلاقها مطلع القرن الحادي والعشرين لم تتوقف المجلة عن تأجيج مشاعر الكراهية والحقد ضد الإسلام. ومجلة الرأسمالية "Capitalism Magazine" مجلة الكترونية مخصصة للدعوة لما أسمته بالرأسمالية غير المنظمة، والتي ساهم الكاتب والمصور الصحفي "مارك داكونا" في ترويجها. والمبادئ التي يحرص داكونا على الدعوة إليها مشتقة من قراءة الفلسفة الموضوعية للروائية والفيلسوفة الأمريكية- السوفيتية "أيان راند"[٢] التي تؤكد فلسفتها على مبادئ الرأسمالية الأصيلة.

هناك العديد من الأقلام التي تكتب بصفة دورية في المجلة مثل: دانيال بابيس، وتوماس سويل، ووالتر ويليامز، كما تقوم شراكة بين المجلة ومعهد أيان راند. وتتبنى المجلة خطاً عدائياً للعرب والمسلمين خاصة أن من بين كُتابها عددا من مؤيدي إسرائيل، ومن بينهم يارون بروك الذي خدم في المخابرات العسكرية الإسرائيلية.

وتمول المجلة أساسًا من تبرعات القراء وإعلانات جوجل. ويؤكد كُتابها على أن المجلة تعبر عن الصوت الأصيل لمبادئ الرأسمالية خاصة فكرة "دعه يعمل، دعه يمر"، ورعاية حق الاجهاض، وتأصيل الحرية الفردية، كما تستهدف المجلة الليبراليين المناهضين للرأسمالية على حد قولها كمن أسمتهم بالليبراليين الاشتراكيين.

إدوارد كلاين صوت العداء

في عموده شبه اليومي يبث "إدوارد كلاين" أبرز كُتاب المجلة سمومه ضد الإسلام والمسلمين؛ فالإسلام وفق رؤيته هو العدو الحقيقي والأوحد، والذي يجب أن تسخر كافة القوى لاقتلاعه واجتثاث جذوره لكونه يحمل بذور العنف والإرهاب، وفي وجوده لن ينعم العالم بالسلام على حد قوله.

ويعد "إدوارد كلاين" روائي أمريكي مثير للجدل في الولايات المتحدة خاصة بعد صدور كتابه الأخير عن هيلاري كلينتون، وكذلك كتابه عن عائلة الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي، وهو متخصص في الكتابة عن فترة الحرب الثورية، ومؤلف سلسلة من الروايات التي تدور أحداثها في انجلترا وفرجينيا في الفترة الثورية، وله العديد من الكتب والمقالات المنشورة، وهو معروف بمناهضته للإسلام وللأديان بشكل عام، ومعروف أيضا بانتقاداته المستمرة للرئيس الأمريكي باراك أوباما، وللحزب الديمقراطي، وللرئيس الأمريكي السابق جورج بوش.

فيما أسماه بالحرب العادلة والتي يقصد بها الحرب الأمريكية في أفغانستان، يرى كلاين أن أحد العيوب الرئيسية للإستراتيجية الأمريكية، تتمثل في التهرب من حقيقة أن العدو الحقيقي للإدارة الأمريكية ليس طالبان ولا القاعدة بل الإسلام نفسه. وبالتالي فوفق رأيه لا يعتبر القضاء على طالبان أو تنظيم القاعدة هدف في حد ذاته، بل يجب استهداف الإسلام لأنه مناهض للغرب، بل ومناهض لكل القيم المؤيدة للحياة والعيش في سلام.

وبالتالي فيجب التعامل مع الإسلام على أنه الخطر السياسي الثيوقراطي، فهو بحكم طبيعته العقائدية دين عنيد وعدواني – على حد قوله – ومن ثم لا يمكن أن يكون دينا سلميا، ويجب على الإدارة الأمريكية اقتلاع الإسلام من أفغانستان قبل الرحيل وعدم السماح لطالبان بالاختلاط بالمدنيين، ويحرص على تذكير الأمريكيين بالثلاث آلاف أمريكي من الضحايا المدنيين الذي لقوا حتفهم جراء ما أسماه بالإرهاب الإسلامي

في الحادي عشر من سبتمبر، ويحذر من مزيد من الضحايا الأبرياء إن لم تقم أمريكا بواجبها في القضاء على الدول التي ترعى الإرهاب في نظره.

ولا يأل كلاين جهدًا في انتهاز كل الفرص للانتقاص من الإسلام والمسلمين، فقد شن حملة شعواء على الوجود الإسلامي في أمريكا، وعلى إنشاء مسجد الجراوند زيرو، وأيد فكرة حرق المصاحف، وحظر النقاب، وانتقد خطاب أوباما من القاهرة الذي أشاد فيه بالإسلام، وحذر من أسلمة أوروبا، معتبرا أن انتصار الإسلام يعني مزيدا من القتل والتدمير وإهدار دماء الأبرياء كما يعتقد.

اعرف عدوك

أما "بوش فاوستين" الكاتب الصحفي ورسام الكاريكاتير الأمريكي، فقد تخصص في الكتابة حول الإسلام والعنف والإرهاب، وله العديد من المقالات والرسوم الكاريكاتيرية المسيئة حول الجهاد والإسلام، ويعد حاليا لإصدار رواية ساخرة بعنوان "الكافر" يعرض فيها لقصة توأمين من أصول إسلامية، تباينت ردود أفعالهما عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فأحدهما أعلن موقفه من نبذ الإرهاب وألف كتابًا فكاهيًا يحمل عنوان "الرجل الخنزير"، والآخر استسلم للإسلام وترك له العنان ليأخذه أينما شاء.

وحسب رؤية فاوستين فالإسلام دين سياسي وفكرة الفصل بين الدين والدولة غير واردة إطلاقا في الإسلام، وفي مقاله "سَمِ الإسلام باسمه" يدعو فاوستن الغرب لمعرفة عدوه وتسميته باسمه الصحيح؛ فهو يرفض كل المصطلحات التي يطلقها المفكرون الغربيون من أمثال: "الأصولية الإسلامية"، "التطرف الإسلامي"، "الإسلام الاستبدادي" و "الفاشية الإسلامية"، "الإسلام السياسي"، "الإسلام الجهادي"، "البن لادينية"، "الإسلاموية"، "الإسلام الراديكالي"، ... وغيرها من المصطلحات الخاطئة حسب قوله.

فكل هذه المصطلحات في نظره تعطي انطباعًا خاطئًا بأنها بدائل للعدو الذي يواجهه الغرب (الإسلام)، فمثلاً لا يعد مقبولاً وصف الفاشية بالمتطرفة لأنها التطرف في ذاته، وفي المقابل يدعو لتسمية الإسلام إسلامًا فحسب، لأن كل هذه الأوصاف تشكل جوهر الإسلام نفسه، وينبغي تسمية العدو باسمه الحقيقي.

وينتقد فاوستين الزعماء السياسيين الذين يشيدون بالإسلام كما لو كان دينهم على حد قوله، فحينما قال جورج بوش أن الإسلام يعني السلام، وحين أتى صوت أوباما من قلب القاهرة ليعلن أن جزءًا من مسئوليته كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية أن يتصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام، فكل هذه المحاولات لدفاع واشنطن عن الإسلام، يراها فاوستين تقصيرًا في أداء الإدارة الأمريكية بل لقد اعتبرها فضيحة حيث

أسماها "إسلام جيت" على غرار فضيحة "ووتر جيت". ويرفض فاوستين الاعتراف بوجود إسلاميين معتدلين أو متطرفين، لأن الشر حسب قوله لا يوصف بالاعتدال أو التطرف، بل هو شر محض، وإذا كان السياسيون خذلوا الغرب فعلى الجميع أن يكافح من أجل نبذ مفهوم الحرب على الجهاد أو الإرهاب، والتأكيد على أنها حرب على الإسلام (العدو).

ما لا تعرفه عن الإسلام

وعلى صفحات المجلة نشرت جماعة تطلق على نفسها "الورود البيضاء" [٣] فيديو بعنوان "ثلاث أشياء عن الإسلام" وهو الفيديو الذي روجت له على موقع اليوتيوب، بهدف الإجابة عن عدة أسئلة من بينها: ما الذي تحتاج لمعرفته عن الإسلام؟، وهل الإسلام دين السلام حقا؟، وما هو السبب الجذري للإرهاب الإسلامي؟ وقد أعد هذا الفيديو بالإنجليزية لمخاطبة غير المسلمين وتعريفهم بالإسلام، ويؤكد صانعوه على أنهم ليس لديهم أي انتماءات دينية، كما نفوا اتهام البعض لهم بالانتماء لإسرائيل.

وفي هذا الفيديو يذكرون ثلاث حقائق مفاجئة لم يكن الغرب يعرفها عن الإسلام على حد قولهم، وأول هذه الحقائق أن القرآن ليس مقتبسا من الكتب السماوية الأخرى، فالإنجيل مثلا مجموعة من الكتابات التي جمعت على مدى مئات السنين، ويضم آراء وأمثال ورؤى، جمعت كلها في كتاب واحد، ونفس الأمر ينطبق على التوراة. أما القرآن كما ذكر معدو الفيديو فهو كتاب واحد كتبه رجل واحد في حياته (في إشارة إلى أنه غير إلهي)، وإذا كان الإنجيل والتوراة يحتويان على متناقضات كالقرآن، فإنه لا يجوز الخلط بين القرآن وغيره من الكتب لأن في القرآن الأحدث ينسخ الأقدم، وبالتالي فإن وجود تناقض بين آيات تدل على التسامح وأخرى تدعو للعنف فإن الآيات الأخيرة نسخت الأولى، ومن ثم فالإسلام دين يدعو للعنف في نسخته الأخيرة. وواضح طبعًا أن معدي هذا الفيديو غلبهم التحيز الأعمى الذي جعلهم يطلقون حكمًا عشوائيًا دون ذكر آية واحدة، ودون إشارة لأقوال المفسرين حول الآيات التي يعتبرونها داعية للعنف أو التسامح كما يذكرون.

والحقيقة الثانية التي يؤكدها الفيديو أن السعي لتطبيق الشريعة الإسلامية هو واجب ديني، فالإسلام في رأيهم أكثر من أيديولوجية دينية فهو أيديولوجية سياسية تشمل خطة إلزامية محددة قانونية وسياسية لعموم المجتمع بتطبيق الشريعة الإسلامية، وهي تلك الشريعة التي تسمح للأزواج بضرب زوجاتهم، وتقطع يد السارق وترجم الزناة، وتجلد شاربي الخمر، وتقتل المرتدين، وكل هذه الحدود في نظرهم دعوة للعنف والإرهاب.

الحقيقة الأخيرة التي يكشفون عنها أن الإسلام يسمح للمسلمين بخداع غير المسلمين إذا كان ذلك في مصلحة الإسلام، وهو ما يسميه البعض التقية، بإظهار غير ما يبطنون، وهم في ذلك يخلطون بين مفاهيم شيعية يرفضها كثير من أهل السنة، كما يتخذون بعض الزعماء والسياسيين المسلمين المعاصرين حجة لتطبيق هذا المبدأ الخداعي حين يصرحون لوسائل الإعلام الغربية بتصريحات ينفونها في الصحف العربية في اليوم التالي.

ربما يقلل البعض من أهمية هذا الفيديو، إلا أنه بالنظر لارتفاع عدد مرات مشاهدته إلى ما يقارب المليوني مشاهدة خلال ثلاث أشهر فقط، مع نشره في مئات المنتديات والمواقع ، ومتابعة عدد التعليقات المؤيدة له، كل هذا ينبئ عن خطورته في ترويج هذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام، لذا أدعو الدعاة من نشطاء الانترنت للرد على هذا الفيديو بآخر يفند هذه المغالطات ويصحح الصورة السلبية التي يروج لها هؤلاء، شريطة الإعداد الجيد له وتضمينه مصادر موثوقة وردود مقنعة عن التساؤلات بالاستعانة بأقوال العلماء الثقات، على أن يكون باللغة الانجليزية وموجها بخطابه لغير المسلمين.

سلاح الإسلاموفوبيا

كاتب آخر معروف بعدائه الشديد للإسلام، واحترافه الكذب والتضليل وهو "روبرت سبنسر" الذي يتخذ من مجلة الرأسمالية منبرًا آخر لنشر ضلالاته، وهو مؤسس موقع جهاد ووتش ويكتب في العديد من الصحف والمجلات ويروج الأكاذيب والافتراءات عن الإسلام. وله عدة مقالات في مجلة الرأسمالية تحمل فكرة واحدة هي تأصيل كراهية الإسلام.

ينتقد سبنسر الترويج لفكرة الإسلاموفوبيا، معتبرًا أنها سلاح يستخدمه المسلمون لتضليل الرأي العام، وحشد التأييد والتضامن مع الإسلام، ويعيب على أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي (أكمل الدين إحسان أوغلو) قوله إن العالم الإسلامي اليوم يمر بأوقات عصيبة، مشيرًا إلى أن المقصود بالأوقات العصيبة في مفهوم أوغلو تفشي وباء كراهية الإسلام (الإسلاموفوبيا)، بينما كان الأولى به أن يذكر أن الأوقات العصيبة يقصد بها تفشي حوادث العنف التي يرتكبها مسلمون في الغرب.

وحسب سبنسر فإن الإسلاموفوبيا مفهوم اخترعه العنصريون من الإسلاميين، لمحاولة تقويض أي تحليل واقعي للجهاد العالمي في جميع مظاهره، بالادعاء بنمو الخوف من الإسلام وانتشاره في أنحاء العالم، بينما يرى سبنسر أن هذا غير صحيح على الإطلاق فجرائم الكراهية ضد المسلمين لا وجود لها إلا نادرًا.

بالطبع لن نجادل سبنسر في ادعاءاته الباطلة، يكفي النظر للعديد من الحوادث التي تدل على كراهية الإسلام بدءً من مقتل مروة الشربيني أو حظر بناء المآذن أو حظر النقاب أو الرسوم المسيئة أو الدعوات المتكررة لحرق المصاحف وغيرها من مظاهر العداء والكراهية، فإذا كانت كل هذه الحوادث في نظر سبنسر لا تعد جرائم كراهية ضد الإسلام، فلابد أن العمى قد طمس عينه قبل قلبه وعقله.

وشارك سبنسر كذلك في الحملة على بناء مسجد الجراوند زيرو، كما تهجم على الشريعة الإسلامية في مناسبات عدة، وانتقد تطبيق الحدود، وهو كثير الخلط بين الإسلام والإرهاب فهما لديه مترادفان تماما، ويدافع بشدة عن حرية المرتدين عن الإسلام من أمثال أيان هيرسي، ويندد باضطهاد البهائيين، ويتعمد تشويه صورة نبي الإسلام والقرآن الكريم.

وفي مقال له بعنوان "محمد في مقابل محمد: الأساطير والحقائق حول مؤسس الإسلام"، حاول التقديم لكتابه الذي يصدر في شهر أبريل ٢٠١٢، بعنوان "هل محمد موجود؟ التحقيق في الأصول الغامضة للإسلام"، والذي يسعى فيه لتفنيد فكرة وجود النبي من أساسه، وهل بالفعل ظهرت هذه الشخصية في التاريخ أم أنه مجرد وهم اخترعته كتب السير والتاريخ. وسبق أن كتب سبنسر كتابًا عام ٢٠٠٦ بعنوان "الحقيقة حول محمد"، ويدور حول نفس الفكرة.

ربما يذكرنا هذا الخطاب العدائي لمجلة الرأسمالية بمحاولات عديدة من مستشرقين متعصبين كرسوا جهدهم لتشويه صورة الإسلام عبر مئات السنين، وستظل هذه المحاولات في الاستمرار ما لم يضطلع المسلمون بدورهم في توضيح الصورة المعتدلة لوسطية الإسلام، فكثير من المسلمين – مع الأسف – يساهمون في تكريس هذه الصور النمطية السلبية عن الإسلام عن جهل أو قصد، لكن البعض أيضًا من هؤلاء الحاقدين سيستمر في بث السموم والأحقاد حتى آخر رمق مصداقًا لقوله – تعالى –: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة١٢٠]، وهؤلاء يجب كشف أكاذيبهم وتفنيد ادعاءاتهم.

ﮋﮋﮋﮋﮋ

---

[١] http://www.capitalismmagazine.com/

[٢] http://en.wikipedia.org/wiki/Ayn_Rand

[٣] جماعة من نشطاء الانترنت يتخذون من السويد مقرًا لهم، وهم يتخذون اسم الورود البيضاء شعارًا لهم، تقليدًا لمجموعة اتخذت نفس الاسم في أربعينيات القرن العشرين لمناهضة النازية.

الجهاد والحرب العادلة.. بين الإسلام والمسيحية



روَّج البعض لمفهوم الحرب العادلة في المسيحية على أنها الوجه الغربي لمفهوم الجهاد في الإسلام، على الرغم من أن المفهوم الأول دخيل على المذهب المسيحي، بينما الأخير من أصول تعاليم الإسلام، وفي الوقت نفسه تعرض المفهومان لمحاولات تشويه وتضليل إعلامي مبالغ فيه، سواء من قبل المسيحيين أو المسلمين؛ وهذا ما دفع "تشارلز أمجد علي" لكتابة دراسته التي حملت عنوان: "الجهاد ونظرية الحرب العادلة.. التنافر والحقيقة" والتي نشرت بمجلة "الحوار "Dialog" "في العدد الذي صدر خريف ٢٠٠٩ والمخصص بكامله عن الإسلام، وهي مجلة إنجليزية فصلية صادرة عن دار نشر بلاك ويل؛ حيث حاول تشارلز تحليل مفهومي الجهاد والحرب العادلة لبيان أوجه التشابه والاختلاف.

العودة للجذور

ينطلق تشارلز في دراسته من البحث عن جذور كلا المفهومين في مبادئ المسيحية والإسلام؛ ليؤكد أن نقطة الاختلاف الأساسية بين المفهومين تبدأ من الأصول الدينية لكليهما؛ ففي حين أن مفهوم الحرب العادلة في المسيحية ليس له أي أساس ديني، لاسيما في العهد الجديد، فإن مفهوم الجهاد في الإسلام تعود أصوله لوقت مبكر جدا يقترن بنشأة الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

فمفهوم الحرب العادلة لم يبدأ في الظهور إلا في منتصف القرن الرابع، والضرورة هي التي فرضته؛ حيث نشأ المفهوم كرد فعل اعتذاري من قبل رجال الدين لتبرير ما قامت به الدولة من حروب، أي إيجاد تبرير أخلاقي ومعنوي للحرب، ولم تظهر هذه الضرورة إلا بعد اعتناق قسطنطين المسيحية، على الجانب الآخر تأصل مفهوم الجهاد، وتطورت نظرية متكاملة بخصوصه؛ حيث بدأ الإسلام في تأصيل نظريات الحكم والإدارة، وتنظيم ممارسة الأدوار السياسية ومن ضمنها الجهاد.

وهكذا فإن نظرية الحرب العادلة في الإسلام تعود جذورها لوقت مبكر جدا مقارنة بالمسيحية، مع الأخذ في الاعتبار أن الإسلام قد نجح في الوصول إلى حضارة البحر المتوسط بفلسفته وأخلاقه، بل وبخطابه السياسي، خاصة كتابات أفلاطون وأرسطو، والتي لم يلتفت إلى الاهتمام بها في الغرب إلا بعد نقل المسلمين

لها وترجمتها، فأخذها عنهم توما الإكويني الذي صاغ نظرية أكثر منهجية للحرب العادلة اعتمادا على المبادئ الأرسطية.

وفي الوقت نفسه الذي توسعت فيه الإمبراطورية الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين نجح فقهاء المسلمين في صياغة نظريات جادة متعلقة بمصادر الأخلاق والقانون والفقه، وفنون الحكم، ومن بينها نظرية في الجهاد.

دور القرآن الكريم

إذا كان القرآن الكريم يمثل للمسلمين المصدر الرئيسي للمعرفة في جميع جوانب الحياة؛ فإن استمرار نزوله على الرسول الكريم أثناء مراحل إقامة الدولة في المدينة المنورة –حيث عاش كل من اليهود والمسيحيين والوثنيين والحنفاء جميعا في ظل الدولة الإسلامية– أدى إلى تناول القرآن للخصائص الأساسية للدولة وأحوالها، فضلا عن فضح محاولات الخيانة الداخلية من قبل اليهود وغيرهم، بل وناقش تفصيلا الحروب ضد المشركين، سواء التي انتصر فيها المسلمون أو المشركون.

كل هذا أدى إلى أن مصطلحات مثل: الجهاد، والحروب، والغزوات، وحتى آداب القتال، وغيرها من المصطلحات المتعلقة بالحرب أصبحت من قواعد الفقه الإسلامي، وتشكلت منذ نشأة الدولة الإسلامية، وصارت مرتبطة بالفقه والأخلاق والعقيدة.

هذه النشأة المبكرة في حد ذاتها تعد –من وجهة نظر تشارلز– مصدر قوة، ولكنها في الوقت نفسه تنطوي على مظاهر ضعف من أهمها عدم قدرة هذه الأحكام على التكيف مع التحولات المعاصرة، أو إيجاد تفسير يصلح للعصر الحالي، على حد قوله؛ فهي قواعد كلية نزلت في سياق تاريخي وجغرافي وسياسي معين، وللأسف استغلت من قبل "الجهاديين" أو الجماعات الإسلامية الراديكالية، أما الاتجاه السلفي أو السني فإنه يرى القرون الثلاثة الأولى في صدر الإسلام –والتي تشمل عهد الرسول والقرنين التاليين– هي النماذج التي طبقت الإسلام كما ينبغي أن يكون، وبالتالي فإن السلفيين يرون أن الإسلام يجب أن يحافظ على روابطه المباشرة بأصوله الدينية كما طبقها المسلمون الأوائل.

حرب عادلة أم توسعية؟

تعرض تشارلز للصعوبات العقائدية والمذهبية لنظرية الحرب العادلة المسيحية؛ حيث ذكر أن مفهوم "الحرب العادلة" في التقليد المسيحي أتى من مصادر عدة؛ فكانت نشأته الأولى مستمدة من كتابات شيشرون (٤٣ ق. م)، ثم ظهرت ضمنيا لدى أمبروز في ميلانو (المتوفى ٣٩٧م)، وأوغسطينوس (المتوفى ٤٣٠م) الذي ابتكر مفهوم الحرب العادلة، ثم انتقلت نظرية الحرب العادلة إلى توما الإكويني (المتوفى ١٢٧٤م)، وفرانسيسكو دي فيتوريا (المتوفى ١٥٤٦م)، وفرانسيسكو سواريز (المتوفى ١٦١٧م) ، ومن ثم أصبح المفهوم رسميا أحد مكونات اعتراف أوغسبورغ عام ١٥٣٠، وأحد المواد التسعة والثلاثين من مواد الإنجيليين عام ١٥٧١، واعتراف وستمنستر عام ١٦٤٨، وبهذه الطريقة أصبح المصطلح جزءا من جميع الهياكل المذهبية الكبرى للكنيسة الغربية.

ومنذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقد أعاد رجال الدين والمنظرون السياسيون والفلاسفة الاجتماعيون إحياء النقاش حول نظرية الحرب العادلة، كما برزت كجزء من التقييم النقدي للحروب الأمريكية في أفغانستان والعراق والتي بدأت في أكتوبر ٢٠٠١ –وهي حروب استخدمت فيها ذرائع ومسوغات بل وأكاذيب– وما زالت مستمرة، تحت عنوان: "الحرب على الإرهاب"، والتي حشد لها الكثير من القوات العسكرية، وشهدت تدخلات المخابرات العسكرية بشكل متزايد.

من بين العديد من الكتب التي صدرت حول نظرية الحرب العادلة في المسيحية كان كتاب «الحرب والسلام والله.. إعادة النظر في الحرب العادلة» لجاري سيمبسون، والذي يتفق تشارلز مع الكثير مما يتضمنه من أفكار، ولكنه يحمل العديد من التساؤلات الخطيرة، سواء عن فرضياته، أو الاستنتاجات التي توصل إليها عن استمرار صلاحية وتطبيق نظريته.

ولم يفت تشارلز تأكيد أن الحروب الصليبية والحروب المقدسة لم تكن تعتبر جزءا من نظرية الحرب العادلة وفقا للعديد من رجال الفكر المسيحي، بل كان الدافع لها حب المغامرة، والأمل في نهب الخيرات، والرغبة في التوسع الإقليمي، والكراهية الدينية تجاه المسلمين، ويتفق تشارلز تماما مع هذه الدوافع، ويرى أنها نفس دوافع الاستعمار الحديث.

جهاد.. لا حرب مقدسة

يعود تشارلز مرة أخرى لمفهوم الجهاد في الإسلام، ويرى أن الجهاد هو عقيدة مركزية لدى المسلمين، وفي السنوات الأخيرة أصبح واحدا من أكثر المصطلحات المتداولة من قبل الإسلاميين الذين يرون الجهاد جنبا إلى جنب مع الشريعة الإسلامية والأمة الإسلامية ثالوثا لا غنى عنه لتجديد العقيدة الإسلامية والمجتمع المسلم، حتى إن البعض ينظر إلى الجهاد على أنه الركن السادس للإسلام، أما في الاتجاه الشيعي فإن الجهاد هو واحد من عشرة أركان أساسية للدين.

ويؤكد تشارلز عدم دقة مصطلح "الحرب المقدسة" في الإسلام؛ حيث يعتبر مصطلح "الجهاد" هو الكلمة الأكثر تميزا للتفرقة بين الإسلام والغرب، ومع ذلك فهذا المعنى الدقيق للكلمة في الواقع عادة ما يترجم بشكل قاطع وغير دقيق لمصطلحات مثل "الحرب المقدسة"، وهذه هي الصورة الشعبية للجهاد التي تسود لدى وسائل الإعلام؛ وهي ما تلبي حاجة الغرب في الدعاية المسيئة للإسلام، بل وربما تلبي حاجة الإسلاميين في الدعاية لأجندتهم الفكرية.

ويفرق علماء المسلمين أيضا بين مفهوم الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر.. مع ذلك يمكننا القول إن مصطلح الجهاد في الإسلام إذا أطلق قصد به الجانب العسكري للإسلام، ومع ذلك فإن الحرب في الإسلام يجب أن تخاض فقط باسم العدالة أو الإسلام؛ لردع المعتدي، أو للدفاع عن النفس، أو لإقامة العدل، وحرية ممارسة الدين.

ويضيف تشارلز أن هناك أربعة معان مختلفة لمفهوم الجهاد الأصغر، كما نزلت في القرآن وكما طبقها المسلمون:

- المواجهة: حيث أمر النبي بنشر رسالة الله والإسلام سلميا، مع تجنب المواجهة المباشرة مع الكافرين {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}، {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}.
- المجادلة: فقد دعا الله النبي لمواجهة الكافرين بالجدال الحسن والحجج المقنعة {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.
- المواجهة تحت شروط محددة: حيث منح الله الإذن للنبي وأتباعه بمحاربة أعدائهم إذا تعرضوا للظلم، أو إذا وقع عدوان عليهم {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}.

- الأمر غير المشروط بقتال جميع الكفار: وذلك حتى يتبعوا دين الإسلام ويقيموا شعائره {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

ويرى بعض علماء الشريعة المسلمين مثل الزركشي أن هذه المعاني الأربعة للجهاد جاءت على سبيل الترتيب الزمني، أي أنها مراحل لجهاد المشركين بدءا من موقف اللاعنف وانتهاء بالقتال، ولكن مشكلة هذا الرأي أنه لا يوجد اتفاق نهائي بين العلماء على ترتيب نزول هذه الآيات وأي هذه الآيات نسخ غيره.

ويفسر بعض العلماء مفهوم الجهاد الأكبر على أنه جهاد النفس لتخليصها من الشوائب والأثرة والأنانية؛ وذلك كخطوة أساسية تسبق السعي لإقامة العدل في الأرض، ويقسم العلماء الجهاد في سبيل الله إلى خمس فئات: الجهاد القلبي، والجهاد باللسان، والجهاد بالعلم، والجهاد باليد، والجهاد بالسيف، وكل هذه الفئات معا تشكل المفهوم الشامل للجهاد في العالم الإسلامي.

آيات السيف

مع ذلك تظل آيات السيف –خاصة الآية الخامسة والآية السادسة والثلاثين من سورة التوبة– هي الانطلاقة الأساسية لمنظري الجهاد، ويرى محمد أسد (١٩٩٢-١٩٠٠) أن الحرب للدفاع عن النفس فقط هي التي تعد حربا في سبيل الله، وأن هذا المعنى يمتد عبر آيات القرآن جميعها بما فيها آيات السيف؛ فالآية الخامسة من سورة التوبة ينبغي قراءتها في سياق الآيتين السابقتين لها، واللتين تتعلقان بمحاربة المشركين الذين أخلوا بالعهد لا المشركين كافة؛ بدليل استثناء المشركين الذين لم ينقضوا العهد من القتال في الآية الرابعة من سورة التوبة {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}.

ويستنتج تشارلز في ختام دراسته أن مفهوم الجهاد في سبيل الله يعود في أصوله للنشأة المبكرة للإسلام، وأنه أحد أصول الإسلام وقواعده الفقهية، ولكنه تعرض لخلط وتشويه من قبل الغرب والمسلمين على حد سواء، أما مفهوم الحرب المقدسة فقد نشأ متأخرا في المذهب المسيحي لتبرير الحروب الدينية التي خاضتها الكنيسة، وليس له جذور في الدين المسيحي، ولا في النصوص المقدسة، ومع ذلك تعرض كلا المفهومين للخلط والتشويه، وهناك حاجة ماسة لإزالة اللبس والفصل بينهما.

القرآن وفهم الإنجيل..رؤية نصرانية

اتفق المفسرون في بيان مقصود الآيات الواردة في سورة المائدة والتي تصف النصارى–أتباع عيسى عليه السلام– على أنهم أقرب الأمم للمسلمين في المودة، وأسمع لدعوتهم الحقة، وإن كانوا يتباينون في سبب نزولها، ومدى عموميتها من خصوصيتها.

بعضهم رأى أن هذه الآيات تخص طائفة معينة من النصارى ممن سمعوا القرآن الكريم؛ فعلموا أنه الحق فأسلموا، وبعضهم يوسع من مدلول الآيات ليشمل جميع النصارى؛ سواء من آمن منهم بدين الإسلام أو ظل على دينه لكنه آمن بصدق القرآن .



وعلى أساس الرأي الثاني يطرح ويتبنى بودمان– الأستاذ المساعد في الدين المقارن بمعهد أوستن للدراسات اللاهوتية بتكساس– رؤيته حول النصارى وقراءة القرآن في دراسة بعنوان "قراءة القرآن كمغترب مقيم"؛ والتي نشرت بمجلة "العالم الإسلامي" الصادرة عن معهد هارتفورد اللاهوتي في عددها الفصلي الرابع لعام ٢٠٠٩.

المغترب المقيم

يتساءل بودمان: هل يقرأ المسيحيون القرآن كما طلب منهم القرآن نفسه أو كما وصفهم القرآن الكريم؟ معتبرًا أن المسيحيين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة دراسة الإسلام والتفاعل مع نصوصه لا يختلفون في حالهم عن حال المهاجر من مكان لآخر؛ فهو مقيم في المكان الجديد لكنه ما زال مغتربا عنه، وهكذا فهؤلاء المسيحيون حين يقرؤون القرآن فهم يحاولون الاقتراب من آياته ومعانيه، لكنهم مع ذلك ظلوا غرباء عنه؛ لأن سياق نزول القرآن يختلف عن واقعهم الذي يعيشونه.

ويرى بودمان أن المسيحيين يسعون للغوص في أعماق القرآن، لكن تتنازعهم هويتهم وقناعاتهم المعرفية المستقاة من الإنجيل؛ لذا يدعو المسيحيين لقراءة جديدة للقرآن بروح مختلفة وبعقل متفتح؛ فربما يؤدي ذلك لوضع أساس جديد للحوار الإسلامي–المسيحي.

ينتقد بودمان الكتب والدراسات التي تتناول القرآن الكريم دون تفرقة بين قارئ مسيحي أو مسلم، ويندرج تحت ذلك أيضا محاولات تفسير المسلمين للقرآن التي لا تفرق بين مسلم ومسيحي، ويعتبر أن هذا لا يكفي لقراءة القرآن باعتباره كتابا مقدسا ووحيا من الله يستلزم قراءته بمزيد من الجدية والاهتمام، ليس فقط من حيث الألفاظ بل من حيث المعنى والسياق؛ لذا فإن على المسيحيين أن يقرؤوا القرآن في سياقه الإسلامي–وهذا لا يعني ضرورة تحولهم للإسلام– بل يعني الدخول في الفضاء القرآني من أجل فهم ما يقوله الله، أي أن يقرؤوا القرآن بعيون المغترب المقيم.

القرآن يرحب بالجميع

ويضيف بودمان: إذا كان القرآن هو كلام الله فمن الإنصاف أن نشير إلى أن القرآن نزل بالعربية على عرب الحجاز بواسطة نبي عربي، ولكنه في نفس الوقت نزل للبشرية جمعاء بل نزل حتى للجن، فحتى مع عدم إيماننا به أو اعتباره مرجعا لنا يظل كتابا مقدسا يقيم الحجة علينا على حد قوله.

وهناك كثير من المسيحيين الذين يقرؤون القرآن بشكل عرضي ربما بدافع الفضول، وهناك البعض الذين يقرؤونه بوجهة أكاديمية، والبعض الآخر يقرؤه بغرض المجادلة (أي تصيد الأخطاء)، ولكن كل هؤلاء لا يقرؤون القرآن كما ينبغي أن يُقرأ، ولا كما أراد الله لهم أن يفهموه.

فالأكاديميون قد يقرؤونه بغرض الإنتاج الفكري أي الكتابة حول ما قرؤوه، بينما غيرهم قد يقرؤونه من أجل التعبير عن أفكارهم الخاصة، أو من أجل تجميع حصيلة معرفية تفيدهم فيما بعد، وهناك القراء الموسميون أو من أطلق عليهم جريفيث مصطلح "القراء الاستهلاكيون."

ويؤكد بودمان أن قراءة النص الديني تختلف عن القراءة الاستهلاكية من حيث طريقة القراءة ومن حيث الموقف من النص المقروء، فالنص الديني هو مصدر ثابت وثري في محتواه، ويحمل ألفاظا ومعاني ذات قيمة جمالية، وأيضا هو نص يقرأ بطريقة مختلفة سواء من حيث حفظه كما أنزل أم من حيث تلاوته بخشوع.

والقرآن الكريم أوجب قراءته بتلاوة وخشوع "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ"، كما أنه نزل للبشرية جمعاء باعتبارها أمة واحدة ليحكم بين الناس "وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"، ووصف القرآن كذلك بأنه لا يمكن الإتيان بمثله، وأنه أحسن الحديث، وأنه آيات بينات، وأنه مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية، وأنه واضح مبين، وبالتالي فالقرآن يرحب بجميع القراء، سواء منهم الأكاديميون أو الذين يقرؤونه عرضيا، فهو يصف نفسه ويحدد كذلك الغرض الذي أنزل من أجله.

دعوة للتدبر

يؤكد بودمان أيضا على أننا يجب أن نتذكر أننا نقرأ نصا مقدسًا يتحدث إلينا ويجعلنا ندور معه في فلك معانيه، وهذا يتطلب منا قراءة متأنية وعميقة، كما أنه يحتاج لإعادة القراءة عدة مرات حتى يتم الوصول للمعنى الصحيح خاصة بالنسبة لأتباع الأديان الأخرى.

فكلما قرأنا نصا من مذهب مختلف عنا يجب أن نعي تماما دورنا في القراءة، فمعنى النص لا يتولد فقط من النص نفسه بل من تفاعلنا كقراء مع النص، فالقارئ يصطحب معه أثناء القراءة خبراته وذكرياته وتوقعاته ومرجعياته الخاصة، كل هذا يشكل جانبا من جوانب توليد المعنى؛ بما يؤدي إلى سد الثغرات والفجوات وغموض النص ولو على الأقل بشكل مؤقت.

ويضيف بودمان أنه كمسيحي حين يقرأ القرآن فإنه لا يمكنه قراءته بنفس أسلوب المسلم الذي يقرؤه، حيث تتأثر قراءته للقرآن بطريقة قراءته للإنجيل، وهو ما يختلف كليا عن الكيفية التي يقرأ بها المسلم كتابه؛ حيث يتم تقطيع الآيات وتلاوتها بخشوع وتدبر يفتقر إليه هو كمسيحي.

ولكن بودمان يؤكد على أنه إذا قرأ القرآن بتدبر وخشوع وتبجيل مع احتفاظه بمرجعيته الدينية فإن ذلك يمكن أن يكون نقطة بداية تفتح الباب للحوار بين الأديان، ويتساءل هل من الممكن أن أكتسب رؤى جديدة حول الإنجيل من خلال قراءة المسلمين الدينية له؟ ويجيب بأنه لو كانت هذه القراءة من قبل المسلمين بنفس التقدير والاحترام فمن الممكن أن يحدث ذلك.

هناك أربع طريق مختلفة لقراءة النص – ربما تكون متراتبة – فبداية يتم قراءة النص وتحليل دينامياته الداخلية وسياقه، ثم قراءته في سياق تفسيره الديني وتطبيقه في المجتمع، ثم يتم قراءته في سياقاته المعاصرة وفقا لتصوره وتطبيقه على حد سواء داخل المجتمع، ثم المرحلة الأخيرة بقراءته كنص فعال في السياق العقدي والديني سعيا للفهم الإيماني المتعمق.

وإذا قرأنا القرآن بقدر أكبر من الجدية المطلوبة نستطيع الدخول في حوار ديني من دون التخلي عن أي من الطرق الأخرى للقراءة، ولا عن خلفيتنا الدينية التي نصطحبها معنا. ونحن ندرك أن مرجعياتنا الدينية لا تتضمن فقط فهمنا الشخصي، بل أيضا فهم مجتمعنا للدين وذاكرتنا الجماعية، بمعنى أصح نحن نقرأ بمفردنا ولكننا لسنا وحدنا في الحقيقة.

النصارى والقرآن

القرآن يتوجه أيضا بخطابه الخاص للمسيحيين حين يصفهم بقوله "وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" فهؤلاء إما قسيسون وإما رهبان، ومن ثم فهم أولا يحبون الذين آمنوا، وثانيا هم قريبو الصلة بالمؤمنين، ثم هم أخيرا ليسوا مستكبرين.

وهذا الوصف لا يقتصر فقط على مجموعة محددة من المسيحيين، بل تتسع لجميع من يقولون إنهم نصارى، حيث هويتهم واضحة؛ فهم ليسوا من ضمن الذين آمنوا، وهو الوصف الذي يطلق على المسلمين فقط.

وكان رد هؤلاء حين سمعوا القرآن الكريم أن تساقطت الدموع من أعينهم تأثرًا بما عرفوا من الحق الذي كانوا يتوقعونه؛ لذا فقد دعوا أن يجعلهم الله من الشاهدين، ولكنهم على الرغم من ذلك ظلوا على دينهم ولم يتحولوا إلى الإسلام، وصحيح أن المفسرين ذكروا أن سبب نزول الآية خاص بالنجاشي وموقفه مع المسلمين الذي هاجروا إلى أرض الحبشة فرارا من كيد المشركين، كما ذكروا في بعض الروايات أنه قد تحول إلى الإسلام، لكن مع ذلك يرى بودمان أن النص يبقى حكمًا عامًا يشمل جميع المسيحيين الذين أقروا بنزول القرآن حتى أولئك الذين ما زالوا على دينهم.

يشترك كل من المسيحيين و"المؤمنين" في أن كلا منهما يؤمن بالحق ويعترف بالقرآن، وكلاهما يؤمن بالله ولديه الرغبة في دخول الجنة؛ وبالتالي لم يكن القرآن غريبا بالنسبة لأولئك المسيحيين، وهم لم يكونوا مغتربين في قراءته؛ ولذا فقد بكوا عند سماعه تأثرا وخشوعا، فهل الأمر نفسه ينطبق على مسيحيي الغرب؟ أو بالأحرى ما توقعات القرآن حول كيفية قراءة المسيحي بشكل عام للقرآن؟

يرى بودمان أن القرآن الكريم يفترض أن المسيحي لديه العلم الكافي ليعرف الحق الذي نزل في القرآن ويتفاعل معه عند تلاوته أو سماعه لدرجة أن تتساقط دموعه عند سماعه، والقراءة بخشوع هي التي تؤدي إلى ذلك، بل أيضا تساعد على فهم العلاقة بين تقديس القرآن من قبل غير المسلمين وبين إخلاصهم لعقيدتهم الأساسية، حيث لا يعني تقديس النصوص بالضرورة الإيمان بها أو التحول عن العقيدة الأم، كما أن تقديس القرآن لا ينكر الاختلافات بين الإسلام والمسيحية.

مع سورة الرحمن

يبدأ بودمان نفسه إعادة قراءة القرآن بروح متفتحة وقلب واع، ويختار سورة الرحمن ليغوص في معانيها التي يرى أنها تزيد من إيمانه بالله، بل تساهم في توسيع فهمه للإنجيل دون أن يترك دينه، ويركز على المعاني الإيمانية واللطائف الكونية المستمدة من السورة، ويقول إن هذه السورة هي الأقرب إلى قلبه؛ لما تتضمنه من معان ودعوات لفتح القلوب ليست فقط من ناحية روحية بل من ناحية عقلية بالتأمل في كتاب الكون المفتوح.

يتوقف بودمان عند معنى كلمة الرحمن والتي لا تعبر فقط عن اسم من أسماء الله بل عن الله ذاته، وأنه وصف نفسه في السورة بالمعلم والخالق، وصفة المعلم سبقت صفة الخالق "علم القرآن، خلق الإنسان" وهذا يبين جزءا من الاختلاف بين صفة الله في العهد القديم عن القرآن، ففي حين هو المعلم والخالق في القرآن فهو الخالق فقط في العهد القديم، بينما المسيح هو المعلم؛ لذا تأتي هذه الآية لتؤكد أن الله هو الذي علم البشرية كل شيء بدءًا من آدم "وعلم آدم الأسماء كلها"، وبالتالي ما يُعلِّمُه المسيح هو امتداد لما تعلمه من الله.

أيضا كلمة "البيان" تستوقف بودمان كثيرًا ويرى أنها أشمل في المعنى من كلمة "logos" في التوراة التي تترجم على أنها الكلمة "في البدء كانت الكلمة" فالبيان أعمق وأدل، ثم تتوالى المقارنات والزوجيات في الآيات التالية "الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان..." وكأنها تعبير عن جزء من هذا البيان، حتى تأتي كلمة الثقلين لتدل على شمولية خطاب القرآن الكريم للإنس والجن جميعًا؛ ولذا فإنها دليل على أن القرآن يخاطب المسيحيين أيضا لأنهم من الإنس، ثم يأتي تكرار الآية "فبأي آلاء ربكما تكذبان" إحدى وثلاثين مرة لتخاطب الثقلين وتستنكر تكذيب البعض بآيات القرآن والكون.

ويحاول بودمان أن يوسع من فهمه لمعنى كلمة الثقلين؛ ويتساءل لِمَ لا يكون المقصود بضمير المخاطب في كلمة "ربكما" ليس فقط الإنس والجن بل ربما المسلم وغير المسلم؟

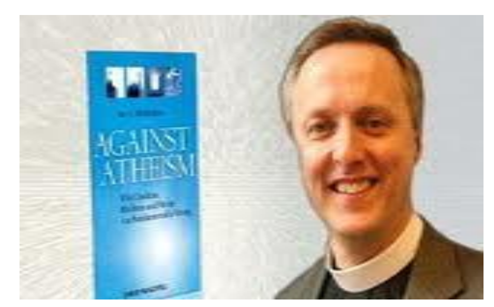
فكلمة (الثقلين) هذه حتى وإن حملت فقط على معنى الإنس والجن فهي دعوة من الله أن يتناسى الجن والإنس نقاط التباين بينهما ويشتركا معا في قراءة القرآن وتدبر آياته والإيمان بها، أفلا يمكن أن ينسحب ذلك أيضا على المسيحيين والمسلمين؟!، فيقرأ المسيحي القرآن بتدبر وخشوع ويتعلم من معانيه التي تقوي إيمانه بالله وينطلق في حواره مع المسلمين من أرضية مشتركة هي الإيمان بالله وعدم التكذيب بآياته، فخلافاتنا لا تمنحنا الحق في أن نستبعد غيرنا من شمول رحمة الله وفضله لهم، وقراءة المسيحي للقرآن لا

توسع فقط من فهمه للإسلام بل أيضا من فهمه للمسيحية، وتجيب عن كثير من الأسئلة المحيرة في المسيحية، ومع ذلك يظل على عقيدته متذكرا أننا جميعا طلاب نسعى لطلب العلم.

ꝏꝏꝏꝏꝏ

الأصولية الإلحادية.. خصومة العقل والعلم

بين آونة وأخرى تُطل علينا المكتبات الغربية بمؤلفات تطالب بالعودة للدين ونبذ الكفر والإلحاد، ربما يكون المحرك الأساسي لها ما يثيره الملحدون الجدد من أفكار تعيد للنقاش حول الدين والإيمان حيويته، وهذا ما دفع "إيان ماركهام" لإصدار كتابه الأخير "في مواجهة الإلحاد: لماذا يعتبر داوكينز وهيتشنز وهاريس مخطئين بالأساس" والذي يعتبره أقل جهد يمكن أن يقدم للرد على هؤلاء المنكرين لوجود الله؛ حيث لم يعد هناك مجال للصمت والتجاهل، صدر الكتاب عن دار نشر ويلي بلاكويل في فبراير ٢٠١٠م في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط.



يشغل ماركهام منصب عميد المعهد الديني بفيرجينيا وأستاذ اللاهوت والأخلاق، وله العديد من المؤلفات مثل "هل للأخلاق جدوى؟"، و"فهم العقيدة المسيحية"، و"المسيح والثقافة" وكتاب عن بديع الزمان النورسي، إضافة للعديد من المقالات.

وفي هذا الكتاب يقوم ماركهام بالرد على "الثلاثي العنيد" وهم ريتشارد داوكينز وكريستوفر هيتشنز وسام هاريس، والذين يعتبرون من أكثر الملحدين الجدد تعصبا وأكثرهم انتشارا بأفكارهم وعقائدهم المغلوطة، ويركز بصفة خاصة على كتاب "وهم الإله" لداوكينز، "الإله ليس عظيما: كيف يسمم الدين كل شيء" لهيتشنز، و"نهاية الإيمان: الدين والإرهاب ومستقبل العقل" لهاريس.

بدأ ماركهام كتابه باستعراض مباراة عقلية بين "فريد" وهو ناشط إلحادي مقتنع تماما بكتابات داوكينز، وبين "ناتالي" وهي مؤمنة ذكية عميقة التفكير، ليغوص في أعماق فريد الذي يصدم في طفولته كباقي الأطفال حين يعلم بخرافة "بابا نويل" التي يرويها الكبار للصغار ويربط بينها وبين وجود الله ويتلمس أوجه الشبه بين الإله وبين شخصية بابا نويل ليستنتج في النهاية أنهما لا يختلفان، فكلاهما قوة أو ذات غير مرئية تقرأ كل العقول وتعرف ما يدور في النفوس وتمتلك كل القوى الخارقة، وكلاهما بلا زمان ولا مكان، وإذا كان بابا نويل في النهاية مجرد خرافة فما الذي يجعل وجود الإله غير ذلك؟ ، إضافة إلى أن الدين هو السبب لكل المشكلات والمصائب في العالم كالصراعات الدينية التي لولا الدين لما وجدت.

في المقابل نجد ناتاليا المؤمنة ترى الله في الجمال المحيط بها في الطبيعة، وترد على فريد بأننا لا يمكننا تنحية الدين جانبا إذا كان سببا في الصراعات الدينية؛ لأننا ببساطة لا يمكن أن نلغي لعبة كرة القدم لتجاوز بعض المشجعين في تصرفاتهم الهمجية؛ فلابد أن نفرق بين الدين والمنتسبين إليه؛ فأخطاؤهم يجب ألا تنسب للدين نفسه، وتعتبر ناتاليا داوكينز وأمثاله من المبصرين العميان الذين يرون كل هذا الجمال والاتساق في الكون ويعتبرونه خدعة أو وهمًا؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم جهدا في تنمية قدرتهم على الرؤية.

الإلحاد الأصولي

بعد هذه المباراة العقلية بين فريد وناتالي يعرض ماركهام أفكاره المواجهة للإلحاد في عشرة فصول، يبدأ في الفصل الأول بالدخول في أعماق الإلحاد والذي أسماه "الإلحاد الأصولي"، ويعترف أن هذا المصطلح سيضايق داوكينز بالتأكيد، ولكنه يعود فيؤكد أن وصف أصولي ليس نقيصة بل وصف لحالة هؤلاء الملحدين المتعصبين أو المحافظين الذين يطلقون افتراضاتهم على أنها حقائق ثابتة ونظريات أكيدة تماما كما فعل رواد الحركة الأصولية المسيحية الحديثة في مطلع القرن العشرين، ويعتقد ماركهام أن الثلاثي الملحد لا يختلف عن هؤلاء الأصوليين في أن كلا منهم لم يحاول قراءة أفكار الآخرين، فلا أحد من الملحدين درس اللاهوت أو قرأ الكتب المقدسة قبل أن يعلن عن أفكاره، بل يعبرون عن أفكارهم بصيغة جازمة وكأنها افتراضات ثبت صحتها.

ويحاول ماركهام في كتابه أن يتجاوز هذا المنزلق الذي وقع فيه الثلاثي الملحد؛ لذا فقد اتبع منهج توما الأكويني في الرد على خصومه، وهو عرض حجج هؤلاء الخصوم ثم الرد عليها قبل أن يكتب أفكاره، فعلى سبيل المثال بدأ يناقش هاريس في فكرته عن وجود الشر في العالم، فقضية سام المحورية هي لماذا يسمح الله بوجود الشر إذا كان قادرا ورحيما وعليما، فكأنه يرى في الإيمان بالله تناقضا ذاتيا بالنظر لواقع الشر في العالم، كما أنه يتساءل لماذا يؤمن الإنسان بما يسبب له القلق والخوف من مجهول قد لا يكون له وجود على الإطلاق؛ فيعيش حياته وهو خائف من الموت ومن الآخرة ومن النار، ثم يكتشف في النهاية أن كل هذه خرافات وأوهام تسببت في حرمانه من سعادته الدنيوية بلا طائل.

ومن جانبه يعتقد داوكينز أن صورة الكون الحالية هي نتيجة لعملية انتقاء وتطور طبيعي عبر ملايين السنين، فكيف يمكن أن يكون هناك خالق ذو قدرة هائلة لهذا الكون سابق على وجود هذا الكون الذي استغرق الكثير من الزمان ليتطور؟ وداوكينز بماديته المتطرفة لا يمكنه أن يتقبل وجود ذات إلهية غير مادية، أما هيتشنز فيرى الإلحاد العلماني هو السبيل لاستكمال البشر لحرياتهم الشخصية التي لا يتدخل في

توجيهها أحد، ومن الضروري التخلص من جميع الأديان في العالم لكي نعيش بسلام وفي أمان. ويناقش ماركهام أفكار كل من هؤلاء الثلاثي عبر صفحات كتابه ويقارعهم الحجة بالحجة.

نيتشه آخر الملحدين

في الفصل الثاني يستعرض ماركهام حياة وأفكار الفيلسوف الألماني نيتشه الذي يعتبره أبا للملحدين؛ فهو يعتقد أن موت الإله هو الحل لجميع مشاكل العقل، فنيتشه يرفض كل ما هو وراء الطبيعة، ويرى أنه "إذا كان العلم يتطور بلا إشارة لوجود الله، فمن السخف أن نعتقد في وجود ذات عليا تحدد سلوكياتنا وتصرفاتنا في الحياة، ومن المثير للشفقة أن نتذلل ونتضرع لهذه الأنا الخفية التي تتوعد غير الطائعين بالعذاب في جهنم، وبالتالي فقد جاءت الفرصة لنكسر حاجز الإيمان المزعوم هذا ونعلن موت الإله"، وإذا كانت هذه هي قمة العقلانية في نظر نيتشه فإن ماركهام يؤكد أنه يستحيل عقليا ألا يكون هناك خالق لهذه العقلانية؛ فهذه الدقة في العالم المادي لا يمكن أن نتخيل أن تحدث صدفة، فلابد من وجود إله خالق وراءها ، وأن كلا من العقلانية والإله يبقيان معا أو يذهبان معا، إلا أن ما يتجاهله دواكينز والآخرون أن نيتشه نفسه أكد أنه لو حدث "موت الإله" لحلت الفوضى في العالم.

الفصل الثالث حمل عنوان "تقدير الخطاب الإيماني" وأكد فيه ماركهام أن عمليات المعرفة تختلف من شخص لآخر ومن ثقافة لأخرى؛ فالطفل الذي ينشأ في بيئة إيمانية يرى الروح في كل شيء حوله في الكون، والطفل الذي ينشأ في بيئة مادية علمانية ينشأ على مفاهيم مثل: الطبيعة، والقوانين العلمية، ومع ذلك فإن معجزة كوننا بشرا تكمن في أننا رغم تأثرنا بطبيعة نشأتنا فإن لدينا القدرة على تقييم هذه الأفكار التي تربينا عليها وتحديد الصحيح من الخاطئ.

"الفيزياء ذلك العلم المتطور" كان عنوان الفصل الرابع والذي استعرض فيه ماركهام لتطور علم الفيزياء الحديث بدءا من إسحاق نيوتن الذي قدم على الرغم من تدينه خليطا من النظريات حول حساب التفاضل والتكامل، وقدم نظريات حول الميكانيكية والجاذبية دون أن ينفي وجود إله، إلا أنه خلال مائة عام فقط من صدور كتابات نيوتن تطور الوضع في علوم الفيزياء الحديثة لإنكار وجود الله وعدم حاجة الكون إليه. فبيير سيمون لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧) كتب في علم الفلك دون أي إشارة لوجود إله، وعندما سأله نابليون عن ذلك قال "سيدي ليس بي حاجة لهذه الافتراضات"، وبالنسبة لداوكينز فإن لابلاس يمثل الأب الروحي له، ولابلاس أيضا من خلال نظرياته عن الحتمية السببية يصل لفكرة أنه إذا اعتقدنا بوجود عقل لا متناه استطاع

في البداية تشكيل ذرات الكون فلابد أن هذا العقل لديه القدرة على رؤية كل شيء يترتب في المستقبل، ولأن لابلاس يؤمن بالمادية مثل داوكينز فإن كل ما لا يتطابق مع العقل يعد سخفا.

في المقابل قدم داوكينز فرضية الأكوان المتعددة كتفسير عقلي لأصل الكون؛ معتبرا أنه ربما يكون هناك غرباء من خارج الكون هم الذين أنشئوا هذا الكون، فيرد ماركهام على هذا السخف بأن الإيمان هو التفسير الأفضل، وأن وجود إله خالق نعرفه هو الأقرب للعقل فلماذا نلجأ لحلول وهمية بافتراض غرباء غير موجودين؟

ويضرب ماركهام مثلا على ذلك بأنه رأى ذات يوم فتات كعك على أرضية المطبخ وهو يعلم أنه لا يوجد في البيت سوى ابنه ذي العشر سنوات؛ لذا واجه ابنه بأن لديه دليلا على أنه أخذ من الكعك، فقدم الطفل له تفسيرا بديلا بأن هناك غرباء دخلوا البيت وأسقطوا هذه الفتات، لكن ماركهام مع اتفاقه مع ابنه باحتمال هذه الفرضية فإن التفسير الأفضل بالنسبة له هو الابن نفسه، فلماذا يفترض وجود غرباء ولديه الطفل ماثل أمامه؟

وعلى نفس الوتيرة لماذا نقبل بتفسير داوكينز عن وجود كيانات وهمية في عوالم موازية بينما لدينا ذات إلهية معروفة، ومن العجيب تمسك داوكينز بتفسير تعدد الأكوان واعتبارها تفسيرا علميا بينما هي تناقض العقل والعلم معا.

وعلى الرغم من أن لب الإيمان محفور في نفس كل منا فإن إدراك وجود الله يحتاج نفسا بشرية عميقة التفكير تنظر في الكون لتستشعر فيه الدقة التي تستلزم وجود خالق، ويعتبر ماركهام أن من حسن الحظ أن الفيزياء الآن تطورت بدرجة كافية ليصل كثير من الفيزيائيين لحقيقة وجود الله، فأصبحت الفيزياء الحديثة صديقة للإيمان وهذا ما لم يصل إليه علم الأحياء بعد الذي ينتمي إليه داوكينز.

الله والوحي

في الفصل الخامس يؤكد ماركهام على حقيقة أن كلا من الثلاثي الملحد يرغب في رؤية العالم يتحول من البدائية والغباء إلى العلم والتنوير، إلا أن أيا منهم لم يبذل جهدا في قراءة القرآن أو الإنجيل في سياقيهما اللذين نزلا فيه، ليتفهما ما الذي أحدثه نزول كل منهما في نفوس البشر وقتها، وهذه هي المشكلة الكبرى لهؤلاء الملحدين فهم ينظرون لنصوص هذه الكتب المقدسة كما لو كانت كتبتا من قبل طالب في جامعة

أكسفورد فشل في الحصول على درجته الجامعية، وليس على أنها كتب إلهية مقدسة، فهناك من طرق التفكير اللانهائية التي يمكن فهم هذه النصوص بها، لكنهم لم يحاولوا من جانبهم القراءة والفهم.

ويرى ماركهام أن أحد أسباب رؤية الملحدين للدين على أنه سبب للحيرة أنهم يتجاهلون حقيقة وجود حدود على عملية المعرفة الإنسانية، فلا يوجد أحد يستطيع أن يلم بكل العلوم والمعارف حتى في عصر الإنترنت وتدفق المعلومات؛ فما زلنا لا يمكننا أن نصل للمعرفة الكاملة كبشر، بينما الوضع مختلف بالنسبة لله فإن علمه يحيط بجميع الكائنات في الكون. ولأن الأديان لا تتشكل فقط من المعتقدات بل تنطوي على أفعال وسلوك فإن هذه السلوكيات والأفعال تتأثر بالبيئة والثقافة المحلية؛ حيث يتناولها الخلف عن السلف في أغلب الأوقات مشافهة وفي بعض الأحيان كتابة؛ لذلك بدأ ماركهام في هذا الفصل بالحديث عن سياق نزول النصوص اليهودية المقدسة، ثم في الفصلين التاليين تحدث عن المسيحية ثم الإسلام.

ويرى ماركهام أن المسلمين كاليهود أو المسيحيين ليسوا جميعا متساوين في تطبيق تعاليم الدين أو الالتزام به، ومع إقرارنا بخطورة الأعمال الإرهابية وقتل الأرواح فإننا يجب ألا نقع في خطأ التعميم الذي وقع فيه هاريس، فأغلب المسلمين ليسوا إرهابيين، فقط أقلية هي التي تنخرط في مثل هذه الأعمال، وهذا لا يعني أن ننسب أفعالهم للدين نفسه.

الدين والصراعات

وفي الفصل الثامن بعنوان "المعاناة والعناية الإلهية وترويع المتدينين" يحاول ماركهام تحليل رؤية الثلاثي الملحد حول أن الإيمان هو أصل الشرور، وأن الدين سبب لكل الصراعات، فيمضي معهم في افتراضاتهم ويضيف: ولكن أليس العلم أيضا يمكن أن يوظف لصالح ورفاهية البشرية وفي الوقت نفسه لقتل وتدمير البشرية؟ فهل يعني ذلك أن نرفض العلم وننحيه من حياتنا؟!

صحيح أن الاختلافات الدينية لعبت كثيرا من الأدوار في الصراعات البشرية لكن كان هناك دائما أبعاد أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية، وليس من الصحيح أن اختفاء الدين كان سيجنب البشرية ويلات الحروب، وأكبر دليل على ذلك ما فعله الزعيم الروسي ستالين باسم الإلحاد من قتل وتدمير، فليس صحيحا إذن أن الإلحاد يعني السلام والأمن بالضرورة.

"الدين والمستقبل" كان عنوان الفصل التاسع والذي يفند فيه ماركهام بعض ادعاءات الثلاثي حول انتشار مذهبهم والتبشير به على أنه المستقبل والخلاص للبشرية، فهم مثلا يتخذون من انتشار كتبهم وبيعها على

نطاق واسع دليلا على انتشار أفكارهم وتقبلها وتأييدها من قبل قطاعات عريضة في المجتمع، لكن ماركهام يذكرهم بحقيقة أنه في عام ٢٠٠٢ كانت أكثر الكتب مبيعا سلسلة "المخلفون" التي كتبها لاهاي ولاقت قبولا واسعا في العالم، وترجمت للعديد من اللغات، وتحولت لأفلام وألعاب إلكترونية، وانتشرت نبوءات هذه السلسلة، وبيع من هذه الكتب ٥٠ مليون نسخة على الرغم من أن لاهاي رجل دين متدين، فليس بيع الكتب دليلا على انتشار الفكرة أو تأييدها.

وفي الفصل الأخير يناقش ماركهام قضية الإيمان والثقة ويرد على داوكينز وأمثاله في مسألة رفض الدين؛ لأنه يتأسس على أوهام أو حقائق غير مؤكدة بأن العلم أيضا لا يتأسس على حقائق مؤكدة ومع ذلك لا يمكننا نبذه جانبا.

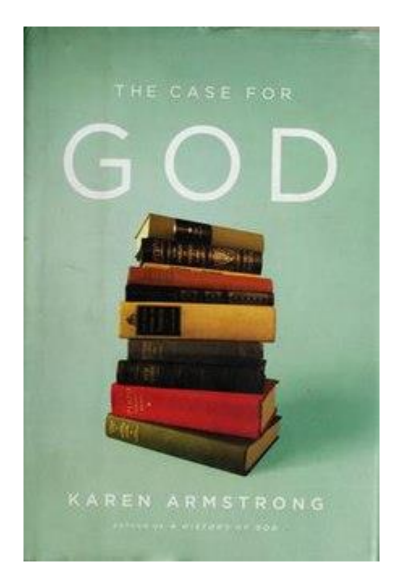
وفي الخاتمة يستخلص ماركهام خمس نتائج من كتابه:

- التأكيد على أنه لا بد من التدريب على الحاسة الإيمانية التي تمكننا من اليقين بالقدرة الإلهية منذ الطفولة، وهي مسئولية الوالدين.
- فكرة أن المعرفة وليدة الثقافة التي نشأنا عليها تجعلنا في حاجة دائمة للحوار مع الآخر لكي نتفهم وجهات نظرهم.
- أن العلم اليوم أصبح أحد الأسباب التي تقود إلى الإيمان.
- أن انتشار كثير من كتب الملحدين الجدد يعود لظاهرة الإسلاموفوبيا، فإذا كان ملحدونا هؤلاء يعتقدون أن الدين يغذي الكراهية والعداء فإن كتبهم نفسها تغذي الكراهية والعداء ضد الإسلام.
- أن هذا الثلاثي يحتاج لقراءة الكتب المقدسة ودراسة العلوم الدينية قبل أن يعبروا عن أفكارهم، بل عليهم أن يعيدوا قراءة أفكار نيتشه الذي توصل إلى أن الاختفاء الرمزي للإله لن يعني سوى الفوضى والاضطراب.

ﮊﮊﮊﮊﮊ

حقيقة "الله" بعيون مستشرقة أيرلندية

تنامي شعبية كتب بعض الملحدين الغربيين من أمثال ريتشارددداوكنز، وكريستوفر هيتشينز، وسام هاريس، وغيرهم، يُظهر حقيقة أنه على الرغم من النهضة الدينية التي تسري حاليا في أنحاء كثيرة من العالم.



وعلى الرغم من التقدم العلمي، فإن ثمة ارتباكا وتشككا واسع النطاق حول طبيعة الحقيقة الدينية، ووجود الله، وهذا ما دفع بالمستشرقة الأيرلندية كارين آرمسترونج لتأليف كتابها "القضية من أجل الله.. ماذا يعني الدين في الحقيقة؟. "

صدر الكتاب في شهر يوليو ٢٠٠٩ عن دار "بودلي" للنشر بالمملكة المتحدة، والكتاب من القطع المتوسط في ٣٨٤ صفحة، وجاء عنوان الكتاب وما يحمله من عنوان فرعي في شكل مثير للجدل، فمن الواضح أن غرض الكتاب الأساسي هو الرد على موجات الإلحاد العدوانية التي يطلقها أمثال داوكينزوهيتشنز.

بين الأصولية والإلحاد

يبحث الكتاب في نشأة الأديان السماوية وكيفية تطورها حتى فرضت نفسها في الوقت الحاضر، ويستعرض النصف الأول من الكتاب حقبة ما قبل العصر الحديث متناولا أصل الكتاب المقدس والنشأة المبكرة للديانة المسيحية مرورا باستعراض مرحلة الحروب الصليبية التي وصفتها آرمسترونج بوصمة عار لا يمكن محوها.

أما الجزء الثاني من الكتاب فيأخذ بأيدينا عبر العصور الحديث بدءا من عصر النهضة مرورا بنشوء ما يسمى بموجة الإلحاد الحديثة وموجات التنصير ونقد النظرية الداروينية.

ويتعرض الكتاب لمناقشة أفكار الملحدين الجدد بزعامة ريتشارد دواكينز وهو عالم بيولوجيا جزئية وفيلسوف أديان بريطاني وقائد حملة الإلحاد المعاصر العلنية، والذي يعرف نفسه على أنه "ملحد – إنساني – علماني – متشكك" وهو معروف بأفكاره الإلحادية وتأييده لنظرية النشوء والارتقاء لداروين، ومن أبرز منتقدي نظرية

الخلق، وكتب داوكينز كتبا عديدة في الإلحاد من بينها "وهم الإله"؛ لذا فقد اعتبر الكثير كتاب آرمسترونج بمثابة صفعة موجهة لداوكينز وأمثاله من الملاحدة الجدد الذين ينكرون وجود الله.

ترى كارين أن كلا من المسيحيين الأصوليين والملحدين لديهم فكرة عن "الله"، والتي تشير إلى قوة عظيمة فوق مستوى إدراك البشر، ولكن الفارق الوحيد بين الأصولي والملحد هو أن الأول يؤكد وجود الله، والثاني ينكر ذلك، ولكنهما يشتركان في أنهما يبحثان عن الدين في المكان الخاطئ.

فتقول كارين إنه في حين أن بعضنا يؤمن بوجود "الله" أو "إله" فإن البعض يعتبر ذلك من قبيل الخرافة، لذا تأتي مناقشتها لهذه القضية والتي تأخرت كثيرا على حد قولها، لتجيب عن سؤال: هل المؤمنون أناس باحثون عن النور الإلهي أم هم حمقى يتخبطون في الظلام؟

الفهم والإيمان

وتؤكد كارين أن على المرء أن يتبع دينا سماويا لكي يتعرف على الله وهذا يتطلب منه التزاما جديا بتعاليم هذا الدين، فالإنسان لا يمكن أن يتعرف على الله من خلال إعمال العقل والمنطق فقط، بل الإيمان هو ما يدفعه لمعرفة الله، ولذلك فهي تفترض أن الإيمان يقود للفهم ولكن الفهم وحده لا يقود إلى الإيمان، وتشير كارين إلى أن ممارسة شعائر العبادات وإن كانت جانبا مهما للإيمان فإنها وحدها لا تكفي للتعبير عن الإيمان فلابد أن تترجم هذه الشعائر إلى سلوكيات تعبر عن حقيقة هذا الدين.

وتوضح كارين في معرض حديثها عن الكتب السماوية الفرق بين الأسطورة والرمز، ففي الحضارة اليونانية القديمة لم يكن هناك اختلاف بين مفهوم المنطق والأسطورة، كما هو موجود اليوم وإنما كان كل منهما يعبر عن أحد جوانب الحياة، فسقراط كان يقول: "الحياة التي لم نعشها لا تستحق العناء"، وبالتالي فإن مفاهيمنا المنطقية ليست هي المسئولة عن فهمنا الخاطئ للدين بل سوء تفسيرنا المعاصر لمفهوم الأسطورة، فالأسطورة قصة لا تتعمد وصف أحداث تاريخية بدقة، ولكنها تعبير عن مخاوف وانفعالات معقدة وغامضة داخل النفس البشرية، وفي العصر الحالي تستخدم كلمة أسطورة كمادة للسخرية وأحيانا كمرادف للباطل، وإذا كان الملحدون يرون أن العقيدة والأديان ما هي إلا محض أساطير فإنهم يتدرجون من ذلك إلى القول إن وجود الله ما هو إلا أسطورة.

وتعتبر كارين الملحدين جهلاء بالثقافة الدينية وأن جدالهم الفكري يتسم بالضحالة ويفتقر للعمق المطلوب، وفي المقابل تذكرنا كارين أن داروين وجاليليو اللذين يعتبرهما البعض من أقطاب الإلحاد المعاصر قد أكدا

على أن ما توصلا إليه من اكتشافات ليس له تأثير على العقائد الدينية، وأن داروين نفسه لم ينف وجود الله، وفي حين دفع سقراط بالعقلانية والتفكير إلى حافة الهاوية حين يدرك الإنسان أنه لا يعلم أي شيء على الإطلاق، فإن الملحدين الجدد يقومون بالنقيض فهم يعتبرون العقلانية والفكر يقودان إلى المعرفة المطلقة، وترى كارين أن هؤلاء الذين يدَّعون المعرفة لا يمكن الوثوق بهم.

ومع ذلك ولعدة قرون كانت الأفكار حول "الله" وحول "الكتب المقدسة" أكثر دقة وعمقا من الفهم الأصولي أو الإلحادي المعاصر، وعلى حد قولها: "لقد فقدنا روعة الدين"، ويبدو الأمر كما لو أن نجاح العلم في العالم المادي قد أعاد تشكيل عقولنا، حيث تحول الدين إلى أسطورة وبدأنا نتساءل: "هل هذا صحيح؟" "هل حقا يمكن أن يحدث؟ عقليا هل هو صحيح؟ لنصل للنتيجة إن لم يكن كذلك، فنحن غير مهتمين على الإطلاق.

"الله" فوق إدراك البشر

وتعتمد كارين على رصد العديد من الأفكار الثرية عن "الله" عبر ٢٠٠٠ عام من تاريخ اللاهوت المسيحي لتؤكد أنه لا التفكير ولا الخيال يمكنهما المضي خارج حدودهما، فمفهوم "الله" بحكم تعريفه فوق مستوى لغة البشر باعتبار أن للغة حدودا لا تتجاوزها.

وتمضي كارين في القول بأن مفهوم "الإيمان" نفسه قد تغير من شعور قلبي إلى حقيقة قائمة على التجربة والملاحظة، ومع ذلك وبفضل سوء تطبيق العلم في العقائد الدينية ما زلنا قاصري الفكر وغير ناضجين روحيا وما زلنا نخاف من نفس الأشياء التي كنا نخافها في العصور السابقة، وسنظل مفتقرين للفهم لأجل غير مسمى برغم خبراتنا الواسعة وما أحرزناه من تقدم، وتؤكد كارين أننا بحاجة للتفكير في "الله" ليس ككائن بل ككينونة.

وتسرد كارين أيضا المشاكل التي ترتبت على تنامي موجة الدين القائم على العلم، حيث تتبنى كارين وجهات نظر المدللين على وجود الله بالنظر لروعة المخلوقات، ولكنها ترفض أن يتم ربط الإيمان بالحقائق العلمية فقط، فقد اقتبست عن "بالي" مقولته: "وحده فقط المجنون الذي يتصور أن آلة ما صنعت بالصدفة"، والتي يقيس عليها قوله "من المثير للسخرية أن نشك في عجائب الخلق ونعتبرها خلقت صدفة"، وتعتبر كارين أن الاعتماد على العلم وحده للتدليل على وجود الله غير كافٍ بل ربما يؤدي لنتائج مفزعة تماما كما فعل أتباع داروين حين حاولوا بالعلم أن يبرهنوا على أن ما في الكون من مخلوقات جاء نتيجة لمراحل من التطور



الطبيعي، وذلك بسبب الإفراط في تقديس العلم فظهرت موجات الإلحاد الحديثة التي نفت وجود الله واعتبرت أن كل ما في الكون وجد صدفة نتيجة التطور الطبيعي.

ولكن هذه الغطرسة العلمية ما لبثت أن تهاوت حين أدركنا أن للعلم حدودا لا يستطيع تخطيها، فكانت خيبة الأمل التي غرست بذور الشك والارتياب في النفوس والذي أدى ليس فقط للإلحاد بل أدى في المقابل إلى الأصولية والتطرف في جميع الأديان كرد فعل.

وتؤكد كارين أنه لم يكن هناك تناقض بين العلم والدين في العصور السابقة، ولكن العلم الحديث قد غير بعض المفاهيم ليبدو كأنه يتصادم مع الدين، وعلى الرغم من خطأ هذا الافتراض، فما زال للدين دور أساسي في العلم الحديث، وما زالت الأديان تدافع عن نفسها ضد العلم.

ﮒﮒﮒﮒﮒ

كارين.. الراهبة الهاربة



يعتبر كتاب قضية الإله هو الإصدار الخامس عشر للكاتبة والمستشرقة كارين آرمسترونج والتي اشتهرت بلقب "الراهبة الهاربة"، باعتبارها راهبة كاثوليكية سابقة تمردت على حياة الرهبنة وخرجت من الدير مخلفة وراءها تجربة مريرة سجلتها في كتابها "عبر البوابة الضيقة" تصف فيها حالة التضييق والعزلة التي تعيشها الراهبات في الأديرة حتى أنهن في عام ١٩٦٦ لم يعرفن بانتهاء أزمة الصواريخ الكوبية إلا بعد مضي عدة أسابيع على انتهائها .

حيث لم يكن يسمح لهن بالاتصال بالعالم الخارجي أو حتى الاستفسار عنه، وتصدر كتابها مبيعات عام ١٩٨٢، ولكنها اكتسبت أيضا عداوة كثير من البريطانيين الكاثوليك الذين انتقدوا صراحتها الشديدة. وانتقلت كارين من حياة الرهبنة إلى ما أسمته بحرية الإيمان، حيث تمضي أغلب أوقاتها بين رفوف الكتب، معتبرة أن القراءة تمدها بالروحانيات وتجعلها مفعمة بالإيمان، وترى أنه لا بد للإنسان أن يتزود بالزاد الروحي من الأديان السماوية جميعها كمظهر من مظاهر العولمة.

ولدت كارين في الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩٤٤ في برمنجهام بإنجلترا من أصول أيرلندية، وأمضت سبع سنوات في جمعية "يسوع الطفل المقدس"، ثم تركتها والتحقت بجامعة أوكسفورد، حيث حصلت على بكالوريوس في الآداب عام ١٩٦٩، وعملت لفترة بتدريس الأدب الحديث بجامعة لندن، وبدأت استعداداتها للحصول على الدكتوراه خلال ثلاث سنوات.

لكن أطروحتها رفضت بلا أسباب، فتركت المجال الأكاديمي لتعمل رئيسا لقسم اللغة الإنجليزية بإحدى مدارس البنات بلندن عام ١٩٧٦، لكن وضعها الصحي حال بينها وبين مواصلة العمل بالتدريس فغادرت حقل التدريس عام ١٩٨٢، وبدأت العمل في مجال الأفلام الوثائقية التلفزيونية، حيث دعتها القناة الرابعة البريطانية لإعداد فيلم وثائقي عن حياة القديس باول، مما أعاد اهتمامها مرة أخرى بالدراسات الدينية فتعمقت في دراسة الديانات السماوية الثلاث.

قامت كارين بزيارة القدس عدة مرات وتصادفت زيارتها الأولى مع مذابح صابرا وشاتيلا فهالها بشاعة الإسرائيليين في قتل الأبرياء خاصة الأطفال بدم بارد وشعرت بالخزي لدور بلادها تجاه القضية الفلسطينية

فعملت على إخراج كتابها "القدس مدينة واحدة وأديان ثلاثة"، وتقول كارين إنها برغم إيمانها بأن الديانات السماوية الثلاث تحمل رسالة واحدة وغاية واحدة لنشر الحب والعدل والسلام وسعادة الإنسان، لكن الدين أيضا يمكن أن يتخذ منطلقا لتبرير الصراعات والحروب الدموية.

الدفاع عن الإسلام

لاحظت كارين أن الإسلام مستهدف بالكراهية أكثر من غيره من الأديان وحين تلقى الغرب رواية "آيات شيطانية" لسلمان رشدي عام ١٩٨٨ واستقبلها ومؤلفها بحفاوة بالغة بعد إثارتها ضجة بالغة في العالم الإسلامي لاحتوائها على إهانة لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم أصرت كارين على البحث عن سر هذه الكراهية البالغة من الغرب للمسلمين والإسلام فكتبت "محمد نبي هذا العصر" لتحاول تعريف الغرب بنبي الإسلام، ولتؤكد أن الإسلام هو الديانة الإبراهيمية الثالثة، ثم أتبعته بكتاب "محمد.. سيرة نبي. "

وتعد كارين من أكثر المستشرقين الغربيين موضوعية، حيث قامت بدحض فرية انتشار الإسلام بحد السيف والتي تم الترويج لها أثناء الحروب الصليبية وكتبت "الإسلام.. تاريخ مختصر"، كما عكفت على دراسة أصول الأديان الثلاثة فكتبت العديد من الكتب من بينها "تاريخ الله.. ٤٠٠٠ عام من البحث في اليهودية والمسيحية والإسلام"، "المعركة من أجل الله.. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام"، "التحول الكبير.. نشأة تقاليدنا الدينية"، وتتصدر معظم مؤلفاتها المثيرة للجدل مبيعات الكتب في إنجلترا.

وفي عام ١٩٩٩ كرمها المركز الإسلامي بجنوب كاليفورنيا لدورها في مد جسور التفاهم بين الأديان الثلاثة، كما حصلت في مايو ٢٠٠٨ على جائزة فرانكلين روزفلت لحرية العبادة وهي إحدى الجوائز الأربع للحرية "التجارة والبيئة والتنمية والحرية الدينية"، وحين أصدر بابا الفاتيكان بنديكيت تصريحاته التي أثارت العالم الإسلامي كتبت مقالا بعنوان "لا يمكننا الاحتفاظ بالنعرات القديمة ضد الإسلام"، مؤكدة أن تصريحات بنديكيت خطيرة وسوف تقنع الكثير من المسلمين أن الغرب ما زال يعاني من عقدة الإسلاموفوبيا.

وتدعو كارين الغرب لتنقية المناهج الدراسية المحشوة بالكراهية ضد المسلمين وإلى ضرورة القضاء على التشويه المتعمد للإسلام في الإعلام الغربي، وتقوم حاليا بإعداد مشروع يحمل عنوان "ميثاق للتراحم" بين كل من يدينون بالديانات السماوية الثلاث.